السكينة في القرآن الكريم

للدكتور

هدى بنت الدليجان الدليجان

أستاذ مساعد في تفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين بالأحساء

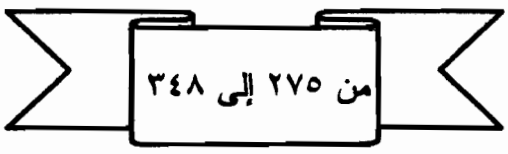

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الدكتور

هدى بنت دليجان الدليجان

أستاذ مساعد في تفسير وعلوم القرآن الكريم

كلية التربية للبنات بالأحساء

السكينة في القرآن الكريم

لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

ففي عصر توالت فيه الفتن، واشتدت الأزمات على الأمة الإسلامية. وضاق الخناق واستشرى الداء في الأعماق، وتحشرجت الأرواح في الأعناق، كان لزاما على أولى الألباب أن يلتفوا إلى كتاب الله الكريم يستخلصوا الدواء الناجح للأزمة، ويرسموا للأمة سبيل تجاوز المحن. فالاجتهاد باب مفتوح في العلوم التي تحتاجها الأمة في كل زمان ومكان.

وأعظم ما تحتاجه الأمة فى هذا العصر الإجابة عن السؤال : ما المخرج من الفتنة؟ وما العلاج الشافى للأزمة التى تمر بها الأمة؟

من أجل ذلك عندما يلتفت المسلم إلى كتاب اله الكريم وحديثه المبارك عن الأزمات التى مرت بها الأمة الإسلامية فى عصر النبوة الشريفة، ويجمع الآيات الكريمة فى تلك المواضع الطاهرة التى ابتليت بها الأمة، وتزلزلت فيها القلوب , واضطربت لها الأفئدة ، يجد عنصرا جامعا لعلاج الأزمة أنزله الله تعلى على نبيه المصطفى محمد وعلى أوليائه الطاهرين من الصحابة الكرام ألا وهو السكينة، فما السكينة؟

- وما المواضع التى تنزلت فيها السكينة؟
- وما الأسباب الجالية لتنزل السكينة؟
- وما الآثار المترتبة على تنزل السكينة؟

أسئلة كثيرة يجيب عنها القرآن الكريم، لذا استعنت بالله واخترت الكتابة فى هذا الموضوع كشفا عن المعانى القرآنية العظيمة وأدويته الناجحة، وتحريا للحق المنزل من عند الله العلى العظيم، وحررته بعنوان : (السكينة فى القرآن الكريم (مدلولاتها — أسبابها — آثارها).

أولاً: أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- للسكينة لفظ جاء ذكره في القرآن الكريم ست مرات في مواضع مهمة ، ونوازل عظيمة وحرى بنا الوقوف عند الآيات ، وتحرير تلك المواضع للإفادة من المعاني والعبر التي تضمنتها تلك الحوادث.

٢- الالتزام بالسكينة دعوة نبوية كريمة جاء ذكرها في كثير من المواضع الشريفة ، وحث النبي ﷺ عليه أصحابه فيها بالتزام السكينة، فوجب الامتثال لأمره (ﷺ)، وتقييد الفوائد من أمتثال السكينة في تلك المواقف وآثارها الإيجابية العظيمة في حس المسلم وأخلاقه وسلوكياته.

٣- آثار تنزل السكينة في القلوب عظيمة ، فالوقوف على تلك الآثار يحث المؤمنين على الألتزام بها، والتحلي بمعانيها في المواقف الحالكة، فكان لا بد من بيان الآثار الجميلة لتنزل السكينة وتفسيرها بالنصوص الشرعية من الكتاب والسنة.

٤- إفراد السكينة ببحث مستقل لم أقف عليه – حسب علمي، مع إن الحاجة ماسة إليه وسط هذه الخطوب التي تصب على المسلمين صبا، وهو جدير بالبحث والاستقصاء، لإثراء المكتبة الإسلامية بما يفيد الأمة في نوازلها وسهماتها وعباداتها.

منهج البحث:

١- جمع الآيات التى وردت فيها السكينة لفظا، والآيات التى وردت فيها أسباب وآثار تنزل السكينة معنى- كما ظهر لى – من خلال التدبر لكتاب الله تعلى، وكتبت الآيات بالرسم العثمانى.

٢- خير ما يفسر القرآن بالقرآن بجمع الآيات التى تبين المعنى، وتفسير القرآن بالأحاديث النبوية، وتوظيفها فى تفسير مباحث هذه الدراسة، مع الاعتماد على الأحاديث الصحيحة المخرجة فى الصحيحين أولا أو أحدهما ثم ما ورد فى السنن والمسانيد، وجعلت متن الأحاديث بين ( )، وخرجته فى الحاشية بذكر المصدر واسم الكتاب والباب ورقم الحديث.

٣- بيان معنى السكينة فى اللغة العربية ومدلولاتها الإفرادية والتركيبية فى سياق الآيات والأحاديث النبوية.

٤- ذكر أقوال بعض المفسرين فى الآيات،والنظر فى ترجيح الخلاف واختيار ما يلزم، وما هو أنسب للمقام مع الإفادة من أقوال العلماء والأئمة فى مظان البحث وتخريجها من مصادرها المذكورة فيها، ووضعت ما اعتمدت عليه من النقل بين علامتى التنصيص" " إذا كان نصا، أما ما كان فكرة أو نتاج قراءة فاكتفيت بقولى فى الحاشية: انظر:.

٥- الترجمة للإعلام غير المشهورين الذين ورد ذكرهم فى البحث.

خطة البحث:

أولاً: **المقدمة:**

وتشتمل على :- أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

-منهج البحث

-خطة البحث

ثانياً: **التمهيد:**

-معنى السكينة فى اللغة والشرع.

-الفرق بين السكينة والطمأنية.

المبحث الأول: تفسير آيات تنزل السكينة:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تفسير تنزل السكينة على بنى إسرائيل.

المطلب الثانى: تفسير تنزل السكينة على نبينا محمد ﷺ وصحابتـــه ، وفيه:

أ- فى غزوة حنين.

ب- فى حادثة الهجرة.

ج- فى صلح الحديبية.

د- فى غزوة الأحزاب.

المبحث الثانى: أسباب تنزل السكينة على المؤمنين: وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تلاوة القرآن الكريم.

المطلب الثانى: تأدية العبادات (الصلاة — الحج).

المطلب الثالث: الدعوة إلى الله تعالى.

المبحث الثالث: آثار تنزل السكينة على المؤمنين.

ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الخشوع.

المطلب الثاني: الحياء.

المطلب الثالث: الطمأنينة.

ثم يلي ذلك : **الخاتمة**

هذا وأدعو الله عز وجل أن يكلل عملي بالتوفيق والسداد ويجعله خالصا لوجهه الكريم, فما كان فيه من خير وصواب فهو بتوفيق الله تعالى وحده، وإن كان فيه خطأ أو تقصير فهز من نفسي فاستغفر الله العظيم التواب الرحيم.

التمهيد:

معنى السكينة في اللغة والاصطلاح

أولا: في اللغة:

السين والكاف والنون: أصل واد مطرد، يدل على خلاف الاضطراب والحركة[1] فالسكون: ضد الحركة وسكن الشيء يسكن سكونا: إذا ذهبت حركته/ وكل ما هدأ فقد سكن كالريح والحر والبرد ونحو ذلك وسكن الرجل : سكت[2]، ومن اباب السكينة: وهو الوقار[3].

وقيل : الوداعة والوقار، ويقال: رجل وديع وقور ساكن هادئ [4] وقد يراد بالسكينة: الرحمة [5] وقيل : السكينة : العقل ، لأن صاحبها يسكن عن الميل إلى الشهوات[6].

ثانيا: في الاصطلاح:

قال الجرجاني:"هي ما يجده القلب من الطمأنينة عند تنزل الغيب، وهي نور في القلب يسكن إليه شاهده ويطمئن" [7]

وقال الراغب: في المفردات:"السكينة والسكن واحد وهو : زوال الرعب، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[8].

---

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ٥٦٤/١.

(2) انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة (سكن) ٣١١/٦.

(3) معجم مقاييس اللغة، (مرجع سابق)

(4) لسان العرب. ٣١٣/٦ (٤) النهاية في غريب الحديث والأثر،لابن الأثير ، ٣٨٦/٢ يراجع.

(5) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ، ٣٨٦/٢.

(6) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٢٤٢.

(7) التعريفات للجرجاني، ص ١٢٥.

(8) المفردات في غريب القرآن، ص ٢٤٣.

وقال ابن القيم هى: "الطمأنينة والوقار والسكون الذى ينزله الله فى قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب لَهُ زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات"

وقال الطاهر بن عاشور: "السكينة من الأخلاق الفاضلة فهى موهبة إلهية"[1].

***ثالثا*:الفرق بين السكينة والطمأنينة:**

الطمأنينة هى السكون بعد الانزعاج[2]، ومعنى السكينة مقارب لمعنى الطمأنينة، لذا قال ابن عباس ﷺ : "كل سكينة فى القرآن فهى طمأنينة إلا التى فى سورة البقرة"[3]، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[4].

قال الفيروزآبادى: "الطمأنينة والسكينة كل منهما تستلزم الأخرى، لكن استلزام الطمأنينة السكينة أقوى من العكس، ثم إن الطمأنينة أعم من السكينة، فالسكينة تكون حينا بعد حين، والطمأنينة لا تفارق صاحبها، وكأنها نهاية السكينة"[5].

ويؤكد هذا الفرق ابن القيم بقوله: "إن الفرق بين السكينة والطمأنينة أمران":

---

(1) التحرير والتنوير، ١٩٤/٢٦.

(2) المفردات فى غريب القرآن، ص ٣١٠.

(3) انظر: جامع البيان عن تأويل أى القرآن لابن جرير الطبرى، ٢٨٠/٣، ومدارج السالكين، ٥٠٣/٢.

(4) سورة البقرة الآية (٢٤٨)

(5) بصائر ذوى التمييز، ٥١٧/٣ (بتصرف)

الفرق الأول: أن السكنية تصول على الهيبة الحاصلة في القلب، فتنعدها في بعض الأحيان، فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون، وذلك في بعض الأوقات، فليس حكما دائما مستمرا، وهذا يكون لأهل الطمأنينة دائما، ويصحبه الأمن والراحة بوجود الأنس، فإن الاستراحة في (السكينة) قد تكون من الخوف والهيبة فقط، والاستراحة في منزل (الطمأنينة) تكون مع زيادة أنس، ودلك فوق مجرد الأمن، وقدر زائد عليه.

الثاني: أن الطمأنينة أعم، فإنها تكون في العلم والخبر به، واليقين والظفر بالمعلوم، ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به، ومعرفته والهداية به في ظلم الآراء والمذاهب، أما السكينة: فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه وسكونه وزوال قلقه واضطرابه"[1].

والذي يظهر في الفرق بين السكينة والطمأنينة من خلال التعريفات السابقة؛ أن السكينة: خلق فاضل يعترى النفس لقوة الداعي إلى ذلك ومباشرة السبب الموجب لإتيانه، بينما الطمأنينة حالة ثابتة للنفس بدليل وصف الله تعالى للنفس المؤمنة بالمطمئنة، قال تعالى:﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [2]، فهي النفس التي اطمأنت بالإيمان وخضعت لربها وأخبتت لأوامره[3]، فالطمأنينة نهاية السكينة مع أنس مريح وأمن صحيح، ومن كثرة تنزل السكينة على النفس تكون الطمأنينة التي تصف بها النفس، فترسخ في العبادات والأخلاق والمعاملات وكل المجالات، وسيأتي مزيد بيان ذلك-إن شاء الله-في مبحث آثار تنزل السكينة على المؤمنين.

---

[1] مدارج السالكين، ٢/٥١٤-٥١٥ (بتصرف).

[2] سورة الفجر الآية (٢٧).

[3] انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ إعداد: مجموعة من المختصين، ٧/٢٧٠٠.

المبحث الأول

تفسير آيات تنزل السكينة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: **تفسير السكينة التى تنزلت على بنى إسرائيل:**

حفل القرآن الكريم بذكر قصص الأقوام السابقين عامة، وبنى إسرائيل خاصة، فذكر من أخبارهم وأحوالهم ومواقفهم مع الأنبياء وفى الحروب مع ملوكهم، وبين القرآن الكريم-بجلاء- تعنت بنى إسرائيل فى طلب الآيات والمعجزات من أنبيائهم، والله تعالى يرسل لهم الآيات البينات تترى مصدقا لنبوة أنبيائه، ولتكن تلك الآيات حجة عليهم، ومن ذلك ما طلبوه من الآيات على صدق ملك طالوت عليهم، فأخبرهم نبيهم بتلك الآية البينة والمعجزة الباهرة على صدقه بأن الله قد بعث لهم طالوت ملكا عليهم، قال تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1]، هذه الآية هى مدار البحث فى السكينة التى تنزلت على بنى إسرائيل، وقد اختلفت أقوال المفسرين فى معنى السكينة الواردة فى الآية الكريمة على عدة أقوال:

١- **قال على بن أبى طالب رضى الله عنه:** هى ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان.

٢- **قال مجاهد:** لها رأس كرأس الهرة وجناحان، وذنب كذنب الهرة.

---

[1] سورة البقرة الآية (٢٤٨).

٣- **قال وهب بن منبه** عن أهل العلم من بنى إسرائيل: السكينة رأس هرة ميتة، كانت إذا صرخت فى التابوت بصراخ هر، أيقنوا بالنصر، وجاءهم الفتح.

٤- **قال ابن عباس رضى الله عنهما:** السكينة: طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.

٥- **قال وهب بن منبه:** السكينة روح من الله يتكلم، إذا اختلفوا فى شئ تكلم، فأخبرهم ببيان ما يريدون.

٦- **قال عطاء بن أبى رباح:** أم السكينة فما تعرفون من الآيات فتسكنون إليها.

٧- **قال الربيع بن أنس:** السكينة: أى رحمة من ربكم.

٨- **قال قتادة:** أى وقار.

قال أبو جعفر الطبرى: "وأولى هذه الأقوال بالحق فى معنى السكينة: ما قاله عطاء بن أبى رباح من الشئ تسكن إليه النفوس من الآيات التى تعرفها. وإذا كان معنى السكينة ما وصفت، فجائز أن يكون ذلك على ما قاله على بن أبى طالب على ما روينا عنه، وجائز أن يكون ذلك على ما قاله مجاهد على ما حكينا عنه، وجائز أن يكون ما قاله وهب بن منبه، وما قاله السدى، لأن كل ذلك آيات كافيات تسكن إليها النفوس، وتثلج بهن الصدور"[1]

ويبين الراغب الأصفهانى خطأ القول بمثل ما ذكره المفسرون بقوله: "وما ذكر أنه شئ رأسه كرأس الهر، فما أراه قولا يصح"[2].

---

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آى القرآن المعروف (تفسير الطبرى)، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى. ٢/٧٢٩-٧٣٢.

(٢) المفردات فى غريب القرآن، ص ٢٤٣

وقال القاضى أبو محمد ابن عطيـــة-رحمـــه الله-: "والصحيـــح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكـــانت النفـــوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به وتقوى، فالمعهود أن الله ينصر الحـــق والأمـــور الفاضلة عنده"[1].

ويجمع الخازن-رحمه الله-بين هذه الأقوال بقوله: "كل شـــئ كـــانوا يسكنون إليه، فهو سكينة، فيحمل على جميع ما قيل فيه، لأن كل شئ يســـكن إليه القلب فهو سكينة، ولم يرد فيه نص صريح، فلا يجـــوز تصويـــب قـــول وتضعيف آخر"[2].

وهذا هو القول الذى ترتاح إليه النفس، لأن غالب هذه الأقوال مأخوذة عن بنى إسرائيل، فلا يمكن نقضها جميعا ولا قبولها جميعا، والله أعلم.

المطلب الثانى: تفسير السكينة التى تنزلت على نبينا ﷺ وصحابته رضـــى الله عنهم

تعرض النبى محمد ﷺ إلى أشد أنواع الأذى والاضطـــهاد والـــهمز واللمز، فضلا عن المخاطر الكبيرة التى تعرضت لها الدعوة الإسلامية ســواء فى المرحلة المكية أم فى المرحلة المدنية، وخاصة فى مغازيـــه ﷺ، وعنـــد لقائه أعداء الله لأعلاء كلمة الله، وقد تنزلت السكينة على قلب نبينا محمدﷺ وصحبه فى أحلك الظروف وأشد الأزمات، وفى ذلك بيان واضح على علـــو

---

[1] المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لأبى محمد عبدالحق بن عطية الأندلســـى، ٣٦١/٢، والجامع لأحكام القرآن لأبى عبدالله القرطبى، ٢٣٦/٣

[2] تفسير الخازن (المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل) لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى، ١٨١/١.

السكينة فى قيمتها الشعورية ودلالاتها النفسية، وقوتها فى إثارة الدافعية الدينية لاثبات على الحق، والمضى فى طريق الدعوة إلى الله تعالى.

وكان من أول المواضع التى تنزلت السكينة فيها على نبينا محمد ﷺ فى بداية البعثة عندما فتر عنه الوحى، قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها "وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى ﷺ فيما بلغنا-حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى منه نفسه، تبدى له جبريل، فقال: يا محمد إنك رسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له: مثل ذلك"[1].

وهذا دليل على أهمية تنزل السكينة على نفس رسول الله ﷺ ودورها فى تقوية صبر النبى ﷺ فى بداية بعثته ليتحمل مشاق الرسالة، ولكى يمضى فى دعوته الإلهية بثبات، ويصبر على الأذى فى سبيل الله.

ويذكر القرآن الكريم تنزل السكينة على قلب النبى ﷺ وأصحابه الكرام فى عدة مواضع، وقد رتبت هذه المواضع حسب ترتيب التلاوة فى مواضعها فى المصحف الشريف دون النظر إلى ترتيبها الزمنى:

---

[1] أخرجه البخارى، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة، ح (٦٩٨٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ، ح (٢٥٢) [١٦٠]

أولاً: في غزوة حنين[1]:

بعد أن فتح الله على المسلمين مكة، وطافوا بالبيت الحرام، وطهروا جنباته من الأصنام والأوثان، ودخل أهل مكة في الدين العظيم، تجمعت قبيلتا هوازن وثقيف على محاربة الإسلام، وإرادة استئصال شأفته، وقتل الرسول ﷺ، فثبوا الكتائب في الشعاب والمضايق ومرتفعات الجبال المحيطة بحنين، فهيأ النبي ﷺ جيشا من المهاجرين والأنصار ومسلمة الفتح، وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان، فخرج إلى حنين لقتال هوازن في أثنى عشر ألفا، عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وألفان من الطلقاء، وقيل: أكثر من ذلك وانطلق بهم إلى حنين بقيادته ليحارب هوازن وثقيف، فلما تحرك هذا الجيش العظيم ووصل الوادي حتى كمنت له تلك الكتائب ورشقوهم بالنبال من كل صوب، فارتاع المسلمون وانهزموا بكل سبيل، وثبت رسول الله ﷺ في نفر قليل من صحبه وأهل بيته، فنادى العباس بن عبد المطلب ﷺ وكان جهوري الصوت: يا معاشر المسلمين، أين أصحاب السمرة؟ فأقبل المسلمين يتدافعون، فعادوا مستبسلين حول رسولهم الكريم ﷺ ، ونزلت سكينته على النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وأخذت السيوف المؤمنة تفعل فعلها في الرقاب المشركة المعادية، فانهزمت ثقيف وهوازن، ونصر الله المؤمنين نصرا عزيزا[2]، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ

---

[1] حنين: واد قريب بين مكة والطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا، انظر: السيرة النبوية، لابن هشام، ٦٩/٤، وتفسير الخازن، ٣٤٥/٢.

[2] انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ٧١/٤، وتفسير سورة الفتح للدكتور. أحمد السيد الكومي، ص ٩٣.

كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[1]، ورد فى تفسير الآية ما روى البخارى ومسلم عن أبى إسحاق[2] قال: جاء رجل إلى البراء بن عازب[3] فقال: "أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين، قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوما رماة، وإنا لما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا، فأقبل المسلمون إلى الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فأما رسول الله ﷺ لم يفر، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان آخذ بلجامها، والنبى ﷺ يقول: أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، اللهم نزل نصرك، قال البراء ﷺ، كنا والله إذا أحمر البأس نتقى به، وإن الشجاع منا للذى يحاذى به، يعنى: النبى ﷺ"[4].

---

[1] سورة التوبة الأيتان (٢٥-٢٦).

[2] أبو إسحاق السبيعى، عمرو بن عبيدالله بن عبيد، من رجال الكتب الستة، ثقة عابد، اختلط فى آخر عمره، توفى سنة ١٢٩ هـ، انظر: تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى، ص ٣٦٠.

[3] البراء بن عازب بن الحارث بن عدى الأنصارى الأوسى، يكنى أبا عمارة، له ولأبيه صحبة، غزا مع النبى ﷺ أربع عشرة غزوة، افتتح الرى سنة ٢٤هـ، توفى سنة ٧٢هـ، انظر: الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبدالبر، ١٤٣/١، وأسد الغابة فى أسماء الصحابة لابن الأثير الجزرى، ٢٠٥/١، والإصابة فى تمييز أسماء الصحابة لابن حجر العسقلانى، ١٤٧/١.

[4] أخرجه البخارى، كتاب الجهاد، باب من قاد دابة غيره فى الحرب، ح (٢٨٦٤)، (٢٩٣٠)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة حنين، ح (٧٥) [١٧٧٥] [١٧٧٦].

فقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى أنزل عليهم ما يسكنهم من الأمنة والطمأنينة عليهم، فأذهب خوفهم، حتى اجترأوا على قتال المشركين بعد أن ولوا[1].

قال الإمام ابن كثير: قلت: "وهذا فى غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه فى مثل هذا اليوم فى حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع ذلك على بغلة، ليست سريعة الجرى، ولا تصلح لكر ولا لفر ولا لهرب، وهو مع هذا يركضها إلى وجوههم، وينوه باسمه، ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله تعالى، وتوكلا عليه، وعلمنا منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أى طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: الذين معه، ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة"[2]. ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾، فهذا هو جزاء الكافرين.

ثانيا: **فى حادثة الهجرة:**

بعدما رأى المشركون قوة الدين الجديد فى نفوس المؤمنين، وقد جربوا معهم ألوان الأذى وصنوف العذاب، ولم يرجع عن ذلك الدين أحد، وقد أذن الله تعالى بالهجرة لصحب النبى ﷺ إلى المدينة بعد بيعة العقبة الثانية، واعتناق الأنصار للإسلام، وانتشاره فى بيوت المدينة، فاجتمع رأى المشركين

---

(1) انظر: تفسير الطبرى، ١١٨/١٠، وتفسير القرطبى، ٩٣/٨، وتفسير الرازى، ١٥/١٦

(2) تفسير ابن كثير، ١٢٨/٤.

على قتل النبى ﷺ والتخلص منه لكى لا يقوم لهذا الدين قائمة، فأذن الله تعالى لنبيه وصحابه أبا بكر فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة، وقد تربص به صناديد قريش ليمكروا به مكرا عظيما، فأنجاه الله تعالى منهم ومكر بهم من حيث لا يشعرون، فهاجر النبى ﷺ إلى المدينة، وفى طريق الهجرة بعث مشركو قريش فى طلبهما الفوارس من رجالهم، وأعدوا لمن أمسك بهما الجوائز العظيمة، وفى ذلك الموقف الرهيب بين الخوف والجزع يخبرنا الله تعالى عن حال النبى ﷺ وصاحبه بقوله تعالى ﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]، فهذه الآية تصور حالى النبى ﷺ وصحابه فى ذلك الموقف العظيم. وقد جاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنهما عن أبى بكر رضي الله عنه قال: "يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن، فإن الله معنا"[2].

---

[1] سورة التوبة الآية (٤٠).

[2] أخرجه البخارى، كتاب فضائل الصحابة، بمناقب المهاجرين وفضلهم، ح (٣٦٥٣)، وكتاب التفسير، باب سورة براءة، ح (٤٦٦٣) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ح (١) [٢٣٨١]

وقد اختلف العلماء في من هو المراد بالضمير (الهاء) في قوله تعالى:﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قال أبو جعفر الطبري في تفسير الآية أي: "أنزل الله طمأنينته وسكونه على رسول ﷺ، وقيل: على أبي بكر"[1].

وقال الإمام ابن العربي: "نزول السكينة على أبي بكر هو قول علمائنا، وهو الأقوى، لأنه خاف على النبي ﷺ من القوم، فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبي ﷺ ، فسكن جأشه، وذهب روعه، وحصل الأمن"[2].

ومن الأدلة التي تعضد هذا القول وتؤيده ما قال ابن كثير في تفسيره للآية: سكينته: أي تأييده ونصره، أي: على الرسول ﷺ في أشهر القولين، وقيل: على أبي بكر رضي الله عنه.

وروى عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره، قالوا: "لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة، وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال، ولهذا قال:﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة:﴿وجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾"[3]

واحتج الإمام الرازي عند تفسيره لهذه الآية على من قال إن الضمير في قوله ﴿عليه﴾ عائد إلى الرسول ﷺ، وقال: "هذا باطل لوجوه:

---

(1) تفسير الطبري، ١٠/١٥٦

(2) تفسير القرطبي، ٨/١٣٥.

(3) تفسير ابن كثير، ٤/١٥٥.

الوجه الأول: أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات، وأقرب المذكورات في الآية هو أبو بكر ﷺ، لأنه تعالى قال: ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ فوجب عود الضمير إليه.

الوجه الثاني: أن الحزن والخوف كان حاصلا لأبي بكر ﷺ لا للرسول ﷺ ، فإنه عليه السلام كان آمنا ساكن القلب بما وعده الله أن ينصره على قريش، فلما قال لأبي بكر: لا تحزن، صار آمنا، فصرف السكينة إلى أبي بكر ﷺ ليصير ذلك سببا لزوال خوفه، أولى من صرفها إلى الرسول ﷺ ، مع أنه قبل ذلك ساكن القلب قوى النفس.

الوجه الثالث: أنه لو كان المراد إنزال السكينة على الرسول لوجب أن يقال: إن الرسول كان قبل ذلك خائفا، ولو كان الأمر كذلك لما أمكنه أن يقول لأبي بكر ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فمن كان خائفا، كيف يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره؟ ولو كان الأمر على ما قالوه لوجب أن يقال ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، ولما لم يكن كذلك، بل ذكر أولا أنع عليه الصلاة والسلام قال لصاحبه: لا تحزن، ثم ذكر بقاء التعقيب نزول السكينة، علمنا أن نزول هذه السكينة مسبوق بحصول السكينة في قلب الرسول عليه الصلاة والسلام، ومتى كان الأمر كذلك وجب أن تكون السكينة نازلة على قلب أبي بكر ﷺ.

فإن قيل: وجب أن يكون قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ المراد منه إنزال السكينة على قلب الرسول، والدليل عليه :﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾، وهذا لا يليق إلا بالرسول ﷺ، والمعطوف يجب كونه مشاركا للمعطوف عليه،

فوجب أن يكون عائدا الى الرسول، فلذا هذا ضعيف، لأن قوله: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ اشارة الى قصة بدر. واذا كان الأمر كذلك، فقد سقط هذا السؤال"[1].

والذي يظهر لي ان هذا القول مع وجاهته وقوة حجته، ألا أنه لا يسقط القول الأول بنزول السكينه على الرسول ﷺ، ويؤيد هذا القول مساندة الآية الأخرى في عروه حنين في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] فلا تعارض بين الآيتين في فهم معنى السكينة التي تنزلت على نبينا محمد ﷺ وهو في حالة من القلق على دين الله وسطوة الباطل، ففاضت السكينة على قلب ﷺ، لتعمر قلب صاحبه المبارك أبي بكر الصديق ﷺ، وفي ذلك سبقه عظيمه لأبي بكر ومزية رفيعة لم تكن لأحد من البشر قبله ولا بعده

ثالثاً: في صلح الحديبية

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[3] وهذه الآيات مستهل سوره الفتح، نزلت لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبيه في

---

[1] التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازي، ١٦/٥٥.

[2] سورة التوبه الايه (٢٦).

[3] سورة الفتح الآيات (١-٤)

ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين أداء العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتى من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة، على رأسهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله عز وجل هذه السورة، فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه[1].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: لما رجعنا من غزوة الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نسكنا، قال: فنحن بين الحزن والكآبة، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾ فقال "لقد أنزلت على آية أحب إلى من الدنيا جميعا، فقال أصحابه: هنيئا لك يارسول الله قد بين الله لنا ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا. فأنزل الله هذه الآية بعدها ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[2][3].

وهذه الآيات الكريمة تتضمن بشارات عظيمة بحصول النصر المبين فى الدنيا والجزاء الكريم فى الآخرة لرسول الله ﷺ وأصحابه الميامين جزاء صبرهم على طاعة رسول الله فى أمره ونهيه خاصة بعد أن خامرهم الفشل وانكسار الخاطر بالعودة من البيت الحرام دون الطواف به ورؤيته، وتسليمهم

---

(1) تفسير ابن كثير، ٣٢٥/٧.

(2) سورة الفتح الآية (٤).

(3) أخرجه البخارى، كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح قوله تعالى﴿إنا فتحنا له فتحا مبينا﴾ح(٤٨٣)، ومسلم كتاب الجهاد، باب صلح الحديبية، ح(٩٧) [١٧٨٦]، وتفسير الطبرى، ٨٤/٢٦، وأسباب النزول للواحدى، ص ٣١٥، واللفظ له.

الكامل لأمره في حادثة صلح الحديبية، فلما أنزل الله عليهم السكينة اطمأنت نفوسهم، فزال ما خامرها من وساوس الشيطان وتأويلاته التي ألقاها في نفوسهم، وأيقنوا أنه نصرٌ عزيزٌ كما وعد الله، وأنه واقع، فانقشع عنهم ما يوشك أن يشكك بعضهم فيه، فيلتحق بالمنافقين الظانين بالله ظن السوء[1].

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ وفي المعنى المراد من تنزل السكينة في هذه الآية عدة أقوال:

القول الأول: إنها بمعنى الطمأنينة، ودليل ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما" أي الطمأنينة، وقال: هي الرحمة"، وقال رضي الله عنهما-أيضا-: "بعث الله عز وجل رسوله بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما آمنوا به صدقوا، زادهم الصلاة، فلما صدقوا به زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الزكاة، فلما صدقوا به زادهم الحج، ثم أكمل لهم دينهم: فقال تعالى:﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾[2]، قال ابن عباس: فأوثق إيمان أهل الأرض وأهل السماوات وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله"[3].

القول الثاني: أن السكينة في الآية بمعنى الوقار والثبات على الحق، ويؤيده ما قاله قتادة: "السكينة هي الوقار في قلوب المؤمنين، وهم الصحابة

---

[1] انظر: تفسير الكشاف للزمخشري، ص ٨٥٠، وتفسير ابن

[2] سورة المائدة الآية (٣).

[3] تفسير الطبري، ٨٤/٢٦، وتفسير المخازن، ١٥٤/٤.

يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك واستقرت، زادهم إيمانا مع إيمانهم"[1].

أما القول الثالث: فمعنى السكينة اليقين بما يكون من الغيب الذى يجب أن نؤمن به، فإذا تنزلت السكينة استفاد المؤمن يقينا بما آمن به من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله، وهذا القول قد حكاه الرازى فى تفسيره بقوله: ﴿أنزل السكينة عليهم﴾ فصبروا فرأوا عين اليقين بما عملوا من النصر علم اليقين إيمانا بالغيب فازدادوا إيمانا مستفادا من الشهادة مع إيمانهم المستفاد من الغيب[2].

وبين معانى السكينة فى الآية الإمام البقاعى بقوله :الثقة بوعد الله ، والصبر على حكم الله ، بل السكينة ههنا معين بالفوز والقوة والروح الذى يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين ، وأثر هذه السكينة الوقار والخشوع وظهور الحزم فى الأمور وكل من رسخ فى الإيمان له فى هذه الآية نصيب جناه دان"[3].

والذى يظهر لى من خلال هذه الأقوال أنها لا تتعارض ولا تتناقض ، بل هى تكمل بعضها بعضا بل قد تكون لتتنزل السكينة فى هذه الموقف العظيم أحوال عظيمة لا يمكن التلفظ بها.

وفى لفظ ﴿ أنزل السكينة عليهم﴾ الإتيان بلفظ الإنزال تشريف لذلك الوجدان بأنه كالشئ الذى هو فى مكان مرتفع فوق الناس فأنزل إلى قلوب الناس شيئا فشيئا وتلك رفعة تخيلية مراد بها شرف السكينة وعلو شأنها[4].

---

(1) تفسير ابن كثير، ٣٢٨/٧.

(2) تفسير الرازى ٥٨ / ١٠

(3) تفسير البقاعى ٧ / ١٨٨

(4) انظر التحرير والتنوير ١٥٠/٢٦ وتفسير سورة الكومى الفتح للكومى ص ٤٧.

وفى لفظ الإنزال أيضا دلالة على زيادة الثبات فمن علم شيئا من قبل وتذاكره واستدام تذكره فإذا وقع لا يتغير ، فالمؤمن الذى يداوم على ذكر الله، ويصبر على أداء الفرائض وترك المنهيات لا ينزعج قلبه عند حصول عارض، لنزول السكينة عليه فى تلك الحالة الطارئة ، وفى حالة عظيمة على أن السكينة تسكب فى القلب الإيمان فيزداد يقينه بالحق وتصديقا بالوعد وقد استدل بذلك العلماء على تفاضل الإيمان فى القلوب وأنه يزداد وينقص كما قرر ذلك علماء أهل السنة والجماعة[1].

ثم ذيل الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ بينما جاء فى الآيتين التى قبلها فى إنزال السكينة على الرسول ﷺ وصحابته فى غزوة حنين ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾[2] ،وكذا الآية الأخرى فى إنزال السكينة فى حادثة الهجرة ﴿وايده بجنود لم تروها﴾[3] ، ففيها دلالة عظيمة على إنزال جند لله تعالى وتأييدهم حقيقة لرسول الله ﷺ وأصحابه المؤمنين ، بينما فى هذه الآية جاء ذكر ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ عامة دون تخصيص بالإنزال أو التأييد وإنما على سبيل الإخبار تأكيدا على قدرته على الانتقام من أعدائه بما له من جنود لا تحصى فى الأرض أو فى السماء ، ولكن لم يفعل ذلك بحكمته جل وعلا أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليثبت قلوبهم وينصرهم على عدوهم بأيديهم.

---

(1) أنظر شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٢٤.

(2) سورة التوبة الآية (٢٦).

(3) سورة التوبة الآية (٤٠).

﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ ختم الله تعالى هذه الآية العظيمة بهذين الاسمين الجليلين لما فيهما من العلم التام والحكمة الكاملة فهو يعلم السر وأخفى ، ولا يخفى مناسبة ذلك مع ذكر السكينة التى هى من أعمال القلوب الباطنة فلله الحجة البالغة والحكمة الباهرة والبراهين الدامغة وأن الله تعالى يضع كل شئ فى موضعه بعلمه وحكمته.

والمؤمن بالله الحكيم العليم يزداد طمأنينة ويقينا وثقة بالله وتوكلا عليه فتتنزل السكينة عليه، على علم وهدى وبصيرة ويقين وثبات لا يهتز.

ثم جاء ذكر إنزال السكينة فى بيعة الرضوان فى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾[1]، والسكينة هنا هى الطمأنينة والثقة بتحقيق ما وعدهم الله من الفتح والارتياض عل ترقبه دون حسرة فترتب على علمه ما فى قلوبهم إنزال السكينة عليهم[2].

عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة[3] يخبران خبرا من خبر رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية قال" أنه لما كاتب رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو [4] يوم الحديبية على قضية المدة ، وكان

---

[1] سورة الفتح الآية (١٨).

[2] التحرير والتنوير ، ١٧٦/٢٦

[3] المسور بن مخرمة بن نوفل الزهرى ، يكنى أبا عبد الرحمن أمة عاتكة بنت عوف أخت عبد الرحمن بن عوف ، ولد بعد الهرة بسنتين وقدم المدينة بعد الفتح وهو غلام أيفع ابن ست سنين حفظ من النبى ﷺ أحاديث وروى عن الخلفاء الأربعة أصابه حجر من حجارة المنجنيق فى حصار ابن الزبير بالحرم فتوفى منه سنة ٦٤ أنظر الإصابة فى أسماء الصحابة ، ٩٩/٦.

[4] سهيل بن عمرو عبد شمس القرشى العامرى خطيب قريش أسلم بعد الفتح فأحسن إسلامه ومات بالطاعون فى الشام سنة ١٨ هـ أنظر الاستيعابى أسماء الأصحاب لابن عبد البر ١٠٧/٢والإصابة في أسماء الصحابة ٣ / ١٤٦.

فيما اشترط سهيل بن عمرو أنه قال لا يأتيكم أحد وإن كان على دينك رددته إلينا وخليت بيننا وبينه وأبى سهيل أن يقاضي رسول الله ﷺ إلا على ذلك فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا فأبى فيه الحديث"[1]

فلما كتبت الشروط بين الرسول الله ﷺ وقريش قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سي الله ﷺ ففلت السب نبي الله حقا؟ قال بلى قلت ألسنا على الحق وعدوا على الباطل ؟ قال بلى قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال إني رسول الله ولست عصيه وهو ناصري ثم أتى ابى بكر الصديق رضي الله عنه وقال له مثل ما قال لرسول الله ﷺ فقال أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق"[2].

وهذا الموقف من عمر يوضح مدى القلق والاضطراب الذي حصل من الصحابة الكرام في أمر الصلح مع قريش في الحديبية ولكن تنزل السكينة عليهم في ذلك الموقف العظيم رد إليهم طمأنينتهم ورادهم إيمانا وثباتا على نصرة هذا الدين وكشف عنهم ما وراء ذلك الصلح العظيم من الحكم الجليلة الخفية وخاصة بعدما شاع بين المسلمين قتل قريش عثمان بن عفان رسول الله ﷺ إليهم فنادى الرسول ﷺ إلى بيعته ونصره عثمان والأخذ بثأره وحرب الدين نقضوا العهد فاستجاب المسلمون للبيعة . وتوافدوا تحت الشجرة لعقد البيعة الكريمة على الموت في سبيل الله تعالى

---

[1] أخرجه البخاري كتاب المغازي غزوة الحديبية ح ٤١٨١، ٤١٨٠ والاستزادة من احداث الحديبية انظر تفسير ابن كثير ٧ / ٣٢٥.

[2] أخرجه البخاري كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع اهل الحرب ح (٢٧٣١، ٢٧٣٢) باختصار

عن يزيد بن عبيد [1] قال : قلت لسلمة بن الأكوع على أى شئ بايعتم رسول ﷺ يوم الحديبية قال على الموت[2].

فقوله تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أى: علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم، وعلم ما فى قلوبهم من الصدق فى بيعتهم، وعلم ما فى قلوبهم من كظم لا نفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم، ليقفوا خلف كلمة رسول الله ﷺ طائعين مسلمين صابرين، ﴿فأنزل السكينة عليهم﴾ بهذا اللفظ القرآنى الذى يرسم السكينة نازلة فى هينة وهدوء ووقار، تضفى على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة، بردا وسلاماً وطمأنينة وارتياحا"[3]وكل هذا من آثار السكينة التى تنزلت عليهم فى بيعة الرضوان ، فاستحقوا أن ينالوا كما ذكر الله تعالى فى ختام الآية: ﴿وآثابهم فتحا قريبا﴾.

ونتمة لما نزل فى سورة الفتح من الآيات العظيمة الدالة على تنزل السكينة فى ذلك الموقف العظيم ، وصف لنا القرآن الكريم موقف كتابة الصلح بين النبى ﷺ سهيل بن عمرو رائد قريش فى الصلح، قال تعالى. ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[4]، والمراد بالسكينة فى الآية : الثبات والأناة ،أى

---

[1] يزيد بن عبيد.

[2] أخرجه البخارى كتاب المغازى باب غزوة الحديبية ح (٤١٦٩).

[3] فى ظلال القرآن لسيد قطب، ٦/٣٢٣٦.

[4] سورة الفتح الآية (٢٦).

جعل في قلوبه التأنى وصرف عنهم العجلة, فعصمهم من مقابلة الحمية بالغضب والانتقام، فقابلوا الحمية بالتعقل نوالتثبت ، فكان فى ذلك خير[1].

وتتمة لما جرى فى حديث صلح الحديبية وما كان من الشروط بين الفريقين (لما رجع النبى ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير[2] رجل من قريش وهو مسلم ، فأرسلوا فى طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذى جعلت لنا فدفعة إلى الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هيا يا فلان جيدا، فاستله الآخر، فقال: أجل والله، إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه به فضربه حتى برد وفر الآخر حتى آتى المدينة، فدخل المسجد يعدوا، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رآى هذا ذعرا فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال : قتل صاحبى، وإنى لمقتول، فجاء أبو بصير إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتنى إليهم ونجانى الله منهم، قال النبى ﷺ : ويل لأمة مسعر حرب لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل[3]، فيلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج رجل أسلم من قريش إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لهم فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت)[4].

---

(1) انظر : تفسير الطبرى ،٧/ ، وتفسير ابن كثير، ٣٢٥/٧.

(2) أبو بصير: صحابى جليل اسمه: عتبة بن أسيد بن حارثة الثقفى ، كان من المستضعفين بمكة، كتب إليه النبى ﷺ بعد قصة إذن قريش له لإيوائه وجماعته بعد أن بلغ فى أذيتهم فجاءه خطاب النبى ﷺ وهو يموت ،ودفن فى مكانه انظر : الإصابة، ٢١٣/٤.

(3) تفسير ابن كثير، ٣٢٥/٧.

(4) أخرجه البخارى، كتاب الشروط، باب الشروط فى الجهاد..، ح (٢٧٣٢، ٢٧٣١).

فالسكينة التى تنزلت على المؤمنين بالرضا بشروط الصلح فى الحديبية، وعودتهم من مكة ولم يطوفوا بالبيت، أورثتهم حلما وثباتاً، ولم يقابلوا تلك الشروط الجائرة بالانتقام، وإنما بالصبر حتى النصر المبين، فكانت تلك السكينة الوقورة الهادئة كالتقوى اللائقة بالقلب المؤمن المتعلق بربه، الساكن بهذه الصلة الكريمة، فلا يغضب لذاته، وإنما يغضب لدين الله عند انتهاك حرماته، فإذا كان الموقف يستلزم الأمر بالسكينة التزم الأمر وأطاع، فأورثته تلك السكينة طمأنينة ورضا بقدر الله عز وجل، وثناء وتكريم أنهم أهل التقوى وأصحاب السكينة.

فى غزوة الأحزاب:

عن البراء رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه — أو أغبر بطنه، يقول:

والله! لولا الله ما اهتدينا ∴ ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ∴ وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغو علينا ∴ إذا أرادوا فتنة أبينا[1]

ومن المعلوم الأهوال التى مرت على رسول الله ﷺ وصحابته أثناء غزوة الأحزاب[2]، ووصفها الله تعالى فى كتابه بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ۞ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ

---

(1) أخرجه البخارى، كتاب المغازى، باب غزوة الخندق، وهى الأحزاب، ح (٤١٠٤)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب غزة الأحزاب وهى الخندق، ح (١٢٥) [١٨٠٣]

(2) انظر فى قصة غزة الأحزاب: سيرة ابن هشام، تفسير الطبرى، وفتح البارى، ٧/٤٠٠، وغير ذلك.

أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[1].

من أجل تلك الأهوال دعا النبى ﷺ وهو يرتجز بإنزال السكينة عليهم لتثبيت قلوبهم ورعاية أحوالهم، قال القاضى عياض فى معنى السكينة الواردة فى قوله ﷺ: أى: "إذا صيح بنا لفزع أو حادث، أبينا الفرار وثبتنا"[2].

فاستجاب الله دعاءه، وتنزلت السكينة، ونزل نصره المبين، وأيده بجنوده من الملائكة والريح، قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾[3].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى وصف الريح التى تنزلت بالنصر قال: عن النبى ﷺ قال: (نصرت بالصبا[4]، وأهلكت عاد بالدبور[5]، قال مجاهد: سلط الله عليهم الريح، فكفأت قدورهم، ونزعت خيامهم حتى أظعنتهم[6].

قال ابن القيم: "أرسل الله على المشركين جندا من الريح، فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها، ولا يقر لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف، وأرسل رسول الله

---

[1] سورة الأحزاب الآيات (٩-١١).

[2] فتح البارى، ٤٠١/٧.

[3] سورة الأحزاب الآية (٩)

[4] الصبا: بفتح المهملة وتخفيف الموحدة وهى: الريح الشرقية، انظر: النهاية فى غريب الحديث، ٢/، وفتح البارى، ٧/ ٤٠٢.

[5] الدبور: الريح الغربية، انظر: فتح البارى، ٤٠٢/٧.

[6] أخرجه البخارى، كتاب المغازى، باب غزوة الخندق، ح (٤١٠٥).

ﷺ حذيفة بن اليمان رضى الله عنه يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد تهيؤوا للرحيل، فرجع إلى الرسول ﷺ، فأخبره برحيل القوم"[1].

فالسكينة تنزلت على أولئك المؤمنين المجاهدين الصابرين بالثبات والتضحية في سبيل الله بالغالى والنفيس، فكان من آثارها أن رد الله عدوهم، لم ينالوا خيراً، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

---

[1] زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم الجوزية، ص ٢٧٤.

المبحث الثانى

أسباب تنزيل السكينة على المؤمنين

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: **تلاوة القرآن الكريم**

من أحب الكلام إلى الله تعالى ذكره، وافضل الذكر عند الله تعالى تلاوة كلامه، وتدبر معانية، وتدبر معانيه، والتغنى بحروفه، والعمل بحدوده، وندبنا إلى ذلك، ووجهنا إلى وجوب تدبر كتاب الله، ومدارسته آناء الليل وأطراف النهار، والأدلة على ذلك كثيرة.

لذا كان من الأسباب المهمة الجالبة لتنزل السكينة على المؤمنين عند تلاوة ايات كتاب الله الكريم، قال تعالى. ﴿ **الَّذين آمنُوا وتَطْمئِنُّ قُلُوبُهُمْ بذكْرِ اللَّه أَلا بذِكْرِ اللَّهِ تَطْمئِنُّ الْقُلُوبُ ۞ الَّذِين آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالِحات طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ** ﴾[1] . والطمأنينة-كما قدمنا هى أعلى منازل السكينة حالاً ومقاما، لذا نبه النبى ﷺ على هذا المقام الشريف وحث عليه، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده).[2]

---

[1] سورة الرعد: (٢٨-٢٩)

[2] أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القران وعلى الذكر، ح (٢٦٩٩)

وفي رواية: عن أبي هريرة رضي الله عنه وأبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده)[1].

فهذه الرواية تقتضي عموم الذكر وعموم المكان في المسجد أو في المدرسة أو في البيت أو غير ذلك، دون تقييده بموضع معين.

فمن أ جل ذلك المقام الأسى كان النبي ﷺ عليه السكينة في قيامه وجلوسه وسلمه وحربه، وكل أحواله، لكثرة معاهدته ذكر الله تعالى، وتلاوة كتابه ومدارسته مع أمين الوحي في السماء جبريل عليه السلام، ومع كتاب الوحي في الأرض، ومع أصحابه، ومع وأزواجه تعليما وتهذيباً، لذا فقد ورد في الكتب المتقدمة في صفة رسول الله ﷺ "إني باعث نبيا أميا، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في ا لأسواق ، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، اجعل السكينة لباسه، والبر شعاره"[2].

فهذا الوصف يتضمن دلالة رائعة على الحالة الرفيعة من السكينة التي كانت عليها النبي ﷺ، فنهل صحبه الطاهرون من معين سكينته لكثرة ملازمتهم له وقربهم منه، حتى قال ابن عباس رضي الله عنه: "كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه"[3].

---

(1) خرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على قراءة القرآن، وعلى الذكر، ح (٢٧٠٠).

(2) مدارج السالكين، ٥٠٧/٢.

(3) بصائر ذوي التمييز، ٢٣٨/٣.

وهذه منقبه لعمر الفاروق ومزية خاصة لتعلق السكينة بقلبه ولسانه وجوارحه ففاضت بالحكمة الصادقة والعمل الصالح الذى أعز الله به الإسلام إلى يوم الدين، فوافق القرآن رأى عمر، ولم يكن ذلك إلا لعمر.

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال عمر رضى الله عنه: (وافقت ربى فى ثلاث: فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر)[1].

ويقول عن نفسه رضى الله عنه: (قلما تكلمت - وأحمد الله- بكلام، إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولى الذى أقول)[2].

ولا غرو فتلك السكينة تنزلت على عمر رضى الله عنه للعلم الذى ألقاه الله تعالى فى قلبه، مع كمال الشخصية وصدق المتابعة، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قالك عن النبى ﷺ قال: (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر)[3].

قال ابن وهب محدثونك أى ملهمون، وقيل: مصيبون، وإذا ظنوا فكأنهم حدثوا بشىء فظنوه، وقيل: تكلمهم الملائكة، وقال البخارى: يجرى الصواب على ألسنتهم، وفى ذلك إثبات كرامات الأولياء.[4] ولقد تمثلت تلك السكينة الإلهية الكريمة حقيقة لذلك الصحابى الكريم فى الحديث الذى رواه البراء رضى الله عنه قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وعنده فرس مربوط

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضى الله عنه، ح (٢٣٩٩).

(2) أخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب فى الإيلاء واعتزال النساء، ح (١٤٧٩).

(3) أخرجه البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ باب فضائل عمر رضى الله عنه، ح (٣٦٨٩) واللفظ له، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر، ح [٢٣٩٨].

(4) شرح صحيح مسلم للنووى، ١٥/ ١٦٦.

بشطنين، فتغشته سحابة، فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال: "تلك السكينة تنزلت بالقرآن"[1].

ويفسر المعنى المراد من وصف السكينة عند تنزلها على قارىء القرآن الكريم ما جاء عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس فسكت، فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت، فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما أجره، رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ، فقال له: اقرأ يابن حضير، اقرأ يابن حضير، قال: فأشفقت يا رسول الله أن طأ يحيى، وكان قريباً منها، فرفعت رأسي، فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: وتدرى ما ذاك؟ قال: لا، قال: تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم)[2].

وفي هذه الحادثة دلالة على اقتران نزول السكينة بملائكة الرحمن لقارئ القرآن، وهذه فضيلة عظيمة اختص الله تعالى بها التالين لكتابه، فمن الواجب لحصول السكينة وتنزلها معاهدة كتاب الله تلاوة وتدريساً، وحفظاً وتدبراً، وعملاً بحدوه، وقياماً بأخلاقه وآدابه، وتربيه الصغار على ذلك، ليشبوا وقد صارت السكينة لهم لباساً ودثاراً، فلا تستغلق عليهم الأفهام، ولا

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل الكهف، ح (٥٠١١)، ومسلم، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، ح [٧٩٥] ولفظه (تنزلت للقرآن).

(2) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، ح (٥٠١٨)، واللفظ له، ومسلم، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، ح (٧٩٦).

ترتج بهم الأحداث، بل تصير الأمة بهم فى نصر وتمكين وعز وتأييد من لدن اللطيف الخبير.

***المطلب الثانى*: أثناء تأديه العبادات (الصلاة – الحج)**

تميزت الشريعة الإسلامية بدعوة نبينا محمد ﷺ إلى السكينة أثناء تأدية العبادات والشعائر الدينية، وما ذلك إلا لتحصيل روح العبادة وجوهرها الثمين من الأخلاق الفاضلة والمعانى السامقة والأعمال الصالحة النافعة، وتتمثل دعوة نبينا ﷺ إلى السكينة فى موضعين مهمين هما:

***أولاً*: أثناء المشى إلى الصلاة:**

حديث القرآن الكريم عن الصلاة ومنزلتها وآثارها، ومخالطتها بشاشة القلوب وخلجات النفوس حديث عظيم وجليل، فأمام الأهوال والمصائب التى مرت بها الدين الجديد فرضت الصلاة كأول الأركان أمراً ليخفف على المسلمين الجدد ما أصابهم، ولتبدأ تلك الصلة الروحية العظيمة بين الخالق الكريم وذلك العبد الضعيف، وتتابعت الآيات فى بيان أهمية الصلاة والأمر بإقامتها والحث عليها، وبيان صفة المشى إليها كما جاء فى قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] فمن طرق تفسير القرآن تفسيره بحديث النبى ﷺ، الذى هو أكمل بيان، وهذه الآية فسرها النبى ﷺ فى وصف الكيفية التى يسعى بها الماشى إلى الصلاة، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها وأنتم تمشون، عليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا)[2].

---

[1] سورة الجمعة الآية (٩).

[2] أخرجه البخارى، ٩٠٨/٢، ومسلم ح (٦٠٢).

وفي رواية عند البخاري (وعليكم بالسكينة والوقار)[1].

قال الإمام النووي: "في هذا الحديث الندب الأكيد إلى إتيان الصلاة بسكينة ووقار، والنهي عن إتيانها سعياً سواء فيه صلاة الجمعة وغيرها سواء خاف فوت تكبيرة الإحرام أم لا؟"[2]

وفي رواية أخرى في تفسير الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا ثوب للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا، فإن أحدكم إذا كان يعمد إلى الصلاة فهو في صلاة)[3].

قال الإمام ابن حجر: "أي إنه في حكم المصلي، فينبغي له اعتماد ما ينبغي للمصلي اعتماده واجتناب ما ينبغي للمصلي اجتنابه"[4].

فينبغي على المشي إلى الصلاة أن يكون متأدباً بآداب الصلاة عليه خشوعها وخضوعها. لأنه في صلاة، وهذه هي السكينة المطلوبة عند الذهاب إلى الصلاة.

ويرى القاضي عياض: "أنه لا فرق بين السكينة والوقار: قال هو بمعنى السكينة، وذكر اوقار على سبيل التأكيد"[5].

---

(1) خرجه البخاري، كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار، ح ٦٣٦.

(2) شرح صحيح مسلم للنووي، ٩٩/٦.

(3) خرجه مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، ح (١٥١) [٦٠٢].

(4) فتح الباري، ١١٨/٢

(5) المرجع السابق.

وقال النووى: "الظاهر أن بينهما فرقاً، وأن السكينة: التأنى فى الحركات واجتناب العبث، والوقار فى الهيئة كغض البصر وخفض الصوت، والإقبال على طريقة بغير التفات، ونحو ذلك"[1].

وجاء فى تفسير تنزل السكينة أثناء المشى إلى الصلاة قول الحسن: "أما والله ما هو بالسعى على الأقدام، ولقد نهو أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع"[2].

فمن أجل هذا ينبغى على المصلى أن يأتى الصلاة سعياً بقلبه من استحضار النية الصالحة وأداء الفريضة الواجبة، وسعياً بعمله يجلله الخشوع والتطيب والاغتسال والذكر باللسان والإخبات فى الجوارح ليحقق تنزل السكينة عليه عند دخوله صلاته.

ثانياً: **عند تأدية مناسك الحج:**

الحج من أركان الإسلام الخمسة التى بنى عليها الدين، ويجب مرة واحدة فى العمر كله، وقد رتب على هذه الفريضة اجتماع الناس وتوافدهم من كل مكان لأداء هذه الفريضة فى مكان واحد، وعلى صفة واحدة، يجمعهم حب الإسلام والإخاء عليه، وأداء نسكهم، والتعارف فيما بينهم، ولما كانت مناسك الحج عظيمة الشعائر، والتزود فيها واجب على من فرض الحج، وخير الزاد التقوى، رفع القرآن الكريم الحرج عن الأمة بابتغاء الفضل من الله تعالى بذكره وتعظيم أمره والتمسك بدينه، فوصف لهم شعيرتهم، ودلهم على طريقة نسكهم، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا

---

[1] شرح صحيح مسلم، ٥/١٠٠.

[2] تفسير القرطبى، ١٨/٩١.

أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۞ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

فالإفاضة المذكورة في الآية، هي إحدى مشاعر الحج العظيمة وهي الإفاضة من عرفة بعد الوقوف عليها يوم التاسع من شهر ذي الحجة، وفي صفة إفاضة النبي ﷺ تفسير للآية الكريمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً وصوتاً للإبل، فأشار بصوطه إليهم، وقال: (أيها الناس، عليكم بالسكينة، فليس البر بالإيضاع)[2].

وعن الفضل بن عباس رضي الله عنهما، وكان رديف النبي ﷺ أنه قال: غي عشية عرفة وغداة جمع – للناس حين دفعوا (عليكم بالسكينة) وهو كاف ناقته[3].

فالحج من المواضع المهمة التي يطلب فيها السكينة والأناة والرفق بالآخرين، قال ابن الأثير في معنى الحديث: "السكينة في الدفع من عرفت: أي الوقار والتأني في الحركة والسير"[4].

---

[1] سورة البقرة (١٩٨-١٩٩).

[2] أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب أمر النبي ﷺ بالسكينة عند الإفاضة، وإشارته إليهم بيده بسوطه ح (١٦٧١).

[3] أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب إدامة الحاج التلبية، ح (١٢٨٢).

[4] النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام ابن الأثير الجزري، ٢/٣٨٥.

وقال الحافظ ابن حجر: "والمراد بالسكينة فى السير الرفق وعدم المزاحمة، ومعنى الإيضاع: أى تكلف الإسراع فى السير، وهذا ليس من البر: أى مما يتقرب به".

ومن هذا أخذ عمر بن عبد العزيز قوله لما خطب بعرفة: "ليس السابق من سبق بعيره وفرسه، ولكن السابق من غفر له".

وقيل: إنما نهاهم عن الإسراع فى الإفاضة من عرفة إبقاء عليهم، لئلا يجحفوا بأنفسهم مع بعد المسافة ووعورة الطريق بين عرفة ومزدلفة[1].

وقال الإمام النووى فى شرحه للحديث: "قوله ﷺ عليكم بالسكينة: فيه إرشاد إلى الأدب والسنة فى السير تلك الليلة، ويلحق بها سائر مواضع الزحام"[2].

وهذا فيه دلالة عظيمة على عظم السكينة التى كان النبى ﷺ يتمثل بها خلقاً وسلوكا أثناء تأدية الحج، لذا دعا أصحابه إلى السكينة وحثهم عليها، ونهاهم عما يدل على مخالفتها، أو يؤثر فى نزولها على المؤمنين فى ذلك الموقف العظيم.

وذكر الإمام ابن تيمية فى صفة نسك رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: "فإذا أفاض من عرفات ذهب إلى المشعر الحرام على طريق المأزمين،.. ثم قال: فيؤخر المغرب إلى أن يصليها مع العشاء بمزدلفة، ولا يزاحم الناس، فإن وجد خلوة أسرع"[3].

---

(1) انظر: فتح البارى، ٣/٥٢٢.

(2) شرح صحيح مسلم، ٩/٢٧.

(3) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، جمع ابن قاسم وابنه، ٢٦/١٣٣ (بتصرف).

فالحج من العبادات الجماعية، التى لا يحصل الأجر والثواب عليها إلا برعاية مصالح الجماعة فيها، وما يحدث من اقتتال وتدافع في الحج من المسلمين، ليس من هدى النبى ﷺ ولا من الفقة فى الدين، لا سيما فى هذه المناسك العظيمة والأعداد الكبيرة، وفى ذلك دلالة على عدم تنزل السكينة، وعدم تحقق الجوهر الثمين لهذه العبادة العظيمة من الأخوة والإيثار والرحمة والشفقة بالآخرين، ولو التزم الناس بهدى النبى ﷺ ودعوته إلى السكينة وحثه عليها لما حدث التدافع والزحام والاقتتال فى تلك المشاعر الطاهرة[1].

***المطلب الثالث*: الدعوة إلى الله تعالى**

الدعوة إلى الله عز وجل من احسن الأقوال والأعمال، والدعاة هم صفوة الله فى خلقه، وأولياؤه فى الدنيا والآخرة، وصاحبها ينال أعلى الدرجات فى العاجلة والآجلة، وقد قسم العلماء مراتب الدعوة إلى الله إلى عدة مراتب منها:

١-دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الله تعالى بالمعجزات وبالحجج والبراهين وبالسيف، هذه المرتبة لم تتفق لغير الأنبياء.

٢-دعوة العلماء إلى الله تعالى بالحجج والبراهين فقط، والعلماء أقسام: علماء بالله وعلماء بصفات الله، وعلماء بأحكام الله.

٣-دعوة المجاهدين إلى الله تعالى بالسيف، فهم يجاهدون الكفار حتى يدخلوا فى دين الله وطاعته.

---

[1] توفي فى يوم النحر من حج عام ١٤٢٤هـ ٢٥٠ حاجا نتيجة للتدافع والزحام والاقتتال عند رمي جمرة العقبة، وفى ذلك تأكيد على أهمية الالتزام بالسكينة فى ذلك الموقف العظيم خاصة مع تزايد أعداد حجاج بيت الله الحرام.

٤- دعوة المؤذنين إلى الصلاة[١].

وقد أمر الله تعالى نبيه المصطفى ﷺ أن يدعو إلى سبيل الله بيقين وثبات، قال تعالى ﴿ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٢] ، قال ابن زيد [٣]: ﴿ هَـذِهِ سَبِيلِي ﴾: "هذا أمرى وسنتى ومنهاجى، ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾: قال: وحق الله وعلى نم اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والموعظة، وينهى عن معاصى الله"[٤].

أما تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أى على معرفة تامة بالتمييز بين الحق والباطل، وما يصلح للناس فى معاشهم ومعادهم، وتحمل الأذى فى سبيل ذلك، لذا كان أصدق الناس إيماناً وأكثرهم متابعة لمنهج النبى ﷺ صحابته رضوان الله عليهم فهم جند الرحمن ومعدن العلم، وكنز الإيمان، كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية[٥].

---

[١] تفسير الخازن، ٨٨/٤.

[٢] سورة يوسف الاية (١٠٨).

[٣] ابن زيد هو: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوى المدنى، مولاهم، اشتهر بعلم الحديث، وأخذ التفسير عن والده، كان صالحاً فى نفسه، وضعفه أهل الحديث، انظر: الجرح والتعديل لابن أبى حاتم الرازى، ٢٣٣/٥، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى، ٥٠٧/٢.

[٤] تفسير الطبرى، ٩٧/١٣.

[٥] انظر: تفسير البغوى، ٢٨٤/٤.

لذا كان رسول الله ﷺ إذ بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره، قال: (بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا)[1].

وفي رواية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا)[2].

والداعية إلى الله يجب أن يكون من أعظم الناس معرفة بالحق وثباتاً عليه وانقياداً لأمر الله في نفسه وأهله، وشكراً لربه في كل أحواله، حتى لا يخيب الله سعيه، ويجعل الحكمة على لسانه وفي أفعاله، فإذا قام قام الداعية بحق لله عليه فلا أحد أحسن قولاً منه[3].

لذا يذكرهم الله تعالى في معرض الثناء على عباده الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، فهم الذين تحملوا واجب الدعوة إلى الله تعالى قولاً وعملاً وتحقيقاً لمقصد الإسلام الكلية، واعتزازاً بتلك الوظيفة العظمى، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دعَا إِلَى اللَّهِ وعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[4].

---

[1] خرجه البخاري، كتاب الأدب، باب قوله ﷺ (يسروا ولا تعسروا)، (٦١٢٥)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ح (١٧٣٤).

[2] خرجه البخاري، كتاب الأدب، باب قوله ﷺ (يسروا ولا تعسروا)، (٦١٢٥)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ح (١٧٣٧).

[3] انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ٥٧٥/٣.

[4] فصلت الآيات (٣٣-٣٥).

فلما كانت الدعوة إلى الله عز وجل تقتضى مخالطة الآخرين، وهدم معتقداتهم الفاسدة، ونقض دعاويهم الباطلة، كان الالتفاف إلى البصيرة الواجبة على الداعية معرفتها ليحقق رضا الله عز وجل، الذى هو منهج الرسول الكريم ﷺ ومن اتبعه إلى يوم الدين، فاالبصيرة تتضمن العلم النظرى الصحيح المصحوب بالأدلة الشرعية الذى يجعله على معرفة تامة بما يقول وعلى هدى ويقين[1]، وهذا هو مقتضى الآية الأولى، والخلق الحسن الرفيع الذى يتضمن: الصبر على سفاهة المدعوين، وتحمل جهالة الكافرين، ويقابل عداوتهم بترك الانتقام منهم، والمضى إلى تبليغ دعوته برفق وأناقن وهذا هو تفسير السكينة المتمثلة فى دعوة النبى ﷺ إلى التكين عند تبليغ دين الله عز وجل[2]، وهو مقتضى الآية الثانية.

فالأمر بالسكينة فى الحديث يقابل الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهى عن التنفير، بذكر ا لتخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير، وفيه أن معنى السكينة هو: تأليف من قرب إسلامه، وترك التشديد عليهم، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ، ومن تاب من المعاصى، كلهم يتلطف بهم، ويدرجون فى أنواع الطاعة قليلاً قليلاً[3].

---

(1) انظر: تفسير الرازى، ١٧٩/١٨.

(2) انظر: تفسير الرازى، ١١٠/٢٧، والحكمة فى الدعوة إلى الله عز وجل، لسعيد بن على بن وهف القحطانى، ص ١٠١.

(3) شرح صحيح مسلم، ٤١/١٢ (بتصرف).

فطريق الدعوة إلى الله طريق طويل وشاق ملىء بالعوائق المادية والمعنوية من اختلاف الطبائع البشرية وإشعال نار العداوة للموروثات الاجتماعية، لذا جاء في الآيات الكريمة تصوير لمقام السكينة التي تتنزل على الداعية وذلك بحث الداعية على التحلى بالخلق الفاضل في مقابلة جهالة المخالفين وعداوة الجاهلين.

واستطاع الإمام النووى أن يفسر الجناس الوارد في الحديث بالمقابلة بين التيسير والتعسير بقوله: "غنما جمع في هذه الألفاظ بين اشيء وضده، لنه قد يفعلها في وقتين، فإن اقتصر على يسروا، لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات، وعسر في معظم الحالات، فإذا قال: لا تعسروا انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب"[1].

فغالب المدعوين تتفاوت مراتبهم في قبول الدعوة، والقدرة على الانقياد لأوامر التوحيد بعد الجاهلية، فما يصلح لتهذيب بعض النفوس إلا بالتيسير عليهم، والرفق بهم، والتأنى في تعليمهم أحكام الشريعة، والارتقاء بهم خطوة خطوة في مدارج الكمال.

أما عن الحكمة من ورود لفظ السكينة في الحديث الأول كمصاحب للبشارة في الحديث الثاني كأحد سبل الدعوة إلى الله عز وجل، من أجل هذا قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث: "هو الأمر بالتيسير، والمراد به الأخذ بالتسكين تارة، وبالتبشير أخرى، من جهة أن التنفير يصاحب المشقة غالباً، وهو ضد التسكين، والتبشير يصاحب التسكين غالباً وهو ضد التنفير"[2].

---

[1] شرح صحيح مسلم، ٤١/١٢.

[2] فتح الباري، ٥٢٥/١٠.

ومن المعلوم حاجة الداعية إلى أن تتنزل عليه السكينة في اقواله وأعماله وأخلاقه وسلوكه، وقد أثنى العلماء على من تحلى بالسكينة في أقواله وأعماله فمثلوها بالقلادة التي تطوق عنق صاحبها، فقد جاء عن أبي إدريس الخولاني قوله: "ما تقلد امرؤ قلادة أفضل من سكينة"[1].

ولا يكون ذلك غلا بالرفق بالمدعوين والتيسير عليهم، ومعالجة نفوسهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يكون بشر المحيا طلق الوجه، لأن ذلك أدعى لقبول دعوته، وحصول محبته، لذا اختص الله تعالى رسوله محمد ﷺ والمؤمنين بتنزيل السكينة عليهم كما مر معنا في الآيات السابقة، ولم يذكرها إلا في موضع الحمد والثناء عليهم ومكافأتهم على صبرهم وتحملهم مشاق الدعوة، قال ابن عباس رضي الله عنه: "أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم"[2].

لذا جاء في تذييل آيات الإحسان إلى الآخرين في الدعوة قوله تعالى: ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة والرفعة في الدنيا والآخرة، لأن الصبر على أذى المدعوين من أكبر خصال مكارم الأخلاق[3].

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني، ١٢٣/٥، والزهد لابن المبارك، ٥٨/١، وأخرج الدرامي، كتاب المقدمة، باب ٣٤، ح ٣٨٧، (١١٩/١) بنحوه.

[2] تفسير ابن كثير، ١٨١/٧.

[3] تفسير السعدي، ٥٧٨/٦.

المبحث الثالث

آثار تنزل السكينة على المؤمنين

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الخشوع

الخشوع قريب من الخضوع، إلا أن الخضوع فى البدن، وهو إقرار بالاستكانة، والخشوع فى البدن والصوت والبصر[1]، قال تعالى. ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[2] أى سكنت، وكل ساكن خاضع خاشع، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح[3].

وذكر الله تعالى فى مقام المدح لعباده قوله تعالى . ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[4].

وجاء فى تفسير الآية وبيان معنى الخشوع أقوال متعددة تمثل صوراً للخشوع وأحواله؛ فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: "كانوا إذا قاموا إلى الصلاة، أقبلوا على صلاتهم، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وعلموا أن الله يقبل عليهم فلا يلتفتون يميناص ولا شمالاً"[5].

---

(1) معجم مقاييس اللغة، ١٨١/٢، والمفردات فى غريب القرآن، ص، ١٥٤.

(2) سورة طه الايه (١٠٨).

(3) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطى، ٨٤/٦.

(4) سورة المؤمنون الايات (١-٢).

(5) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطى، ٨٤/٦.

وقال مجاهد في تفسير الآية: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ أي: السكون[1].

ويبين الفخر الرازى موضع الخشوع وآثاره على النفس بقوله: "اختلفوا فى الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات، ومنهم من جمع بين الأمرين وهو الأولى، فالخاشع فى صلاته لابد وأن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود، ومما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكناً مطرقاً ناظراً إلى موضع سجوده، ونم التروك أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، ولكن الخشوع الذى يرى على الإنسان ليس إلا ما يتعلق بالجوارح، فإن ما يتعلق بالقلب لا يرى"[2].

لذا أمر النبى ﷺ الساعين إلى الصلاة بالإتيان بسكينة ووقار، لأنه مقبل على الصلاة، وأحد شروط الصلاة الأساسية لقبولها من العبد تحقيق الخشوع، فهو فى الصلاة كالروح للجسد، وركنها الأصيل، وحبلها المتين.

قال ابن القيم: "السكينة إذا نزلت على القلب أطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح، وخشعت واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الفحش والخنا واللغو وكل باطل"[3].

---

(1) الزهد لابن المبارك، ١/٥٥.

(2) تفسير الفخر الرازى، ٢٣/٦٨.

(3) مدارج السالكين، ٢/٥٠٦.

فثمرات السكينة تظهر فى خشوع الإنسان على ما يلى:

- طمأنينة القلب ثقة بالله تعالى وحسن توكل عليه.
- وقار للجوارح طاعة لله تعالى وفعلاً للبر والتقوى.
- نطق للسان بالصواب حكمة وتسديداً من الله تعالى، والابتعاد عن قول الفحش والفجور رهبة من المولى الجبار.

وهذه هى مدارج كمال النفس الإنسانية التى تحيا فى نور الإسلام وتستمد من قوته، وكلما ازداد المرء إيماناً ازداد خشوعه، وتلك ثمرة لتنزل السكينة عليه، فيلين المسلم فى كنف أخيه، وينتشر الإخاء والألفة، وتعم الطمأنينة، فتقوى بنيان المجتمع، ويعمه الرخاء.

من أجل هذه المنزلة العالية للخشوع حذر المولى عز وجل عباده من قسوة القلب للمناقية للخشوع، قال تعالى .﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[1].

قال البقاعى فى تفسير الآية: (أن تخشع) أى: "أن تكون لهم رتبة عالية فى الإيمان، بأن تلين وتسكن وتخضع وتذل وتطمئن فتخبت، فتعرض عن الفانى، وتقبل على الباقى"[2].

ويتبين من الأمر بالخشوع فى العبادات قوة الداعى إلى السكينة لتحقيق مقاصد الشريعة، ونيل ثمرته من الآثار الحسنة على الفرد بصحة عبادته،

---

(1) الحديد الآية (١٦).

(2) تفسير البقاعى، ٤٤٧/٨

وعلو درجته، وعلى المجتمع بتوطيد أركانه وتوثيق بينانه على الحق، ذلك لأنه إذا ارتفع الخشوع من العبادة انتفت السكينة، وذلك دليل على اضمحلال الحق، ذلك لأنه إذا ارتفع الخشوع من العبادة انتفت السكينة، وذلك دليل على اضمحلال الحق، وسكون النفس إلى المعاصى، وتهدم أركان المجتمع وزوال آثاره، لذا جاء عن قتادة أنه قال: كان شداد بن أوس رضى الله عنه[1] يقولك "أول مايزفع من الناس الخشوع"[2].

فوصيه الله لخلقه أن يتابعوه فى أوامره وترك نواهيه، فإذا نسوا ما أوصاهم به، وخالفوا أحكام شريعته، قست قلوبهم، وتمردوا على الإجتراء على تغيير الدين، فيحذرهم من التشبه بأهل الكتاب الذين قست قلوبهم، وتمردوا على الإجتراء على تغيير الدين، فيحذرهم من التشبه بأهل الكتاب الذين قست قلوبهم، وغيروا دينهم، وأفسدوا عقائدهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه قليلاً، نبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فبلغوا حد الكفر، فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد[3].

من أجل ذلك كان حرياً على المسلم أن يقبل على عبادته ودعوته بخشوع، لتحصيل منافع العبادات وتنزل السكينة عليه، وأن يكون حذراً من

---

(1) شداد بن أوس بن ثابت الأنصارى، أبو يعلى، صحابى جليل، ابن أخى حسان بن ثابت رضى الله عنه، له مناقب عظيمة وخصال حميدة، سكن حمص، وتوفى بها سنة ٥٨هـ، انظر: الإصابة، ١٩٤/٣.

(2) أخرجه الطبرى، ٢٦٦/٢٧، ووصله الطبرانى فى المعجم الكبير، ٢٩٥/٧، وفيه عمران بن القطان: متكلم فيه.

(3) انظر: تفسير ابن كثير، ٢٠/٨، والتحرير والتنوير، ٣٢٩/٢٧.

وقوعه في قسوة القلب الداعية إلى حصول القلق والاضطراب والفساد في الأقوال والأعمال المنافية للسكينة.

المطلب الثاني: **الحياء والملاطفة**

من صفات الله الجليلة الثابتة بالكتاب والسنة صفة الحياء، ودليله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾[1] ، ووصفه الرسول ﷺ في حديثه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبده، إذا رفع يديه إلى السماء أن يردهما صفرا ليس فيهما شيء)[2].

فالحياء اللائق بالرب تبارك وتعالى من عبده لا تدركهالافهام ولا تكيفة العقول، لأن صفاته لا يشبهها شيء ، لكن معنى الحياء الائق بصفة المولى عز وجل ، بإنه حياء كرم وبر وجود وجلال[3]

أما الحياء البشرى فهو: الخوف من ظهور شيء قبيح منه ، وهو من مكارم الأخلاق، وأول الفضائل ، ورأس المحاسن، وهو ملكة راسخة في النفوس تدفعها في إيفاء الحقوق، وترك العطيعة والعقوق[4].

---

(1) البقرة الايه (٢٦).

(2) أخرجه الترمذى، ح ٣٥٥٦، وأبو داود (١٤٨٨)، وقال الألبانى صحيح ٢٧٩/٠١) والحاكم في مستدركه (٤٩٧/١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى، وقال الحافظ ابن حجر في فتح البارى (١١/ ١٤٧) إسناده جيد.

(3) انظر : مدارج السالكين ،٢٧٢/٢ بصائر ذوى التمييز، ٥١٧/٢

(4) انظر: تهذيب الأخلاق لابن مسكوية، ص ٦٧، ودليل الفالحين ، ١٥٨/٣

وعن أبي السوار العدوى[1] قال: سمعت عمران بن حصين[2] قال : قال النبي ﷺ (الحياء لا يأتي إلا بخير) فقال بشير بن كعب[3]: مكتوب في الحكمة: إن من الحياء وقاراً، وإن من الحياء سكينة، فقال له عمران: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحيفتك؟)[4].

قال القاضي عياض: "إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم، وأما كونه خيراً كله ولا يأتي إلا بخير، فأشكل حمله على العموم، لأنه قد يصد صاحبه عن مواجهة من يرتكب النمكرات، ويحمله على لاإخلال ببعض الحقوق، والجواب: أن المراد بالحياء في هذه الأحاديث ما يكون شرعياً، والحياء الذى يشأ عنه الإخلال بالحقوق ليس حياء شرعيأن بل هو عجز ومهانة"[5] .

وهذا الأمر ينافي السكينة التي تتنزل على المؤمنين عند التسليم والانقياد لأمر الله تعالى، وتحمل في سبيل الله تعالى الأذى، فالمؤمن ليس

---

(1) أبو السوار العدوى : قيل اسمه حسان بن حريث على الصحيح، وقيل : حجير بن الربيع، ثقة عابد روى عنه البخارى ومسلم والنسائى، انظر : تقريب التهذيبن ص٥٦٩

(2) عمران بن حصين بن عبيد الخزاعى، يكنى أبا نجيد ،روى عن النبيﷺ عدة أحاديث وكا صاحب راية خزاعة يوم الفتح، كان من فقهاء الصحابة وفضلائهم، توفى بالبصرة ٥٢ هـ، أنظر : الإصابة ، ٢٧/٥

(3) بشير بن كعب بن أبى الحميرى العدوى ، أبو أيوب البصرى ، ثقة ، من التابقين الذين نقلوا عن أهل الكتاب ، ولذلك طعن فى روايته وقد أخرج له البخارى فى صحيحه هذا الحديث، انظر : تقريب التهذيب ، ص٦٤.

(4) أخرجه البخارى، كتاب الأدب، باب الحياء، ح (٦١١٧).

(5) فتح البارى، ٥٢٢/١٠.

بالعاجز ولا العضيف، كما مر معنا فيما سبق – في أشد المواقف سبيل وأحلك الأزمات كان يظهر بريق لاإيمان ومعدن التقوى ولباس ذلك الحياء، قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: "الإيمان عريان، وزينته التقوى، ولباسه الحياء"[1].

أما عن علاقة الحياء وأثره في وقار المسلم وتنزل اسكينة عليه فيفسره **أبو العباس القرطبى** قائلاً: "معنى كلام بشير: أن من الحياء ما يحمل صاحبه على الوقار، بأن يوقر غيره ويتوقر هو في نفسه، ومنه ما يحمله على أن يسكن عن كثير مما يتحرك الناس فيه من الأمور التى لا تليق بذى المروءة، ولم ينكر عمران عليه هذا القدر من حيث معناه، وإنما أنكره عليه من حيث أنه ساقه في معرض من يعارض كلام الرسول بكلام غيره"[2].

ويؤخذ من هذا الحديث أن الكتب السماوية أجمعت على أهمية السكينة، وأن الحياء الفطرى الذى جبلت عليه النفوس الكريمة من آثار تنزل السكينة على الإنسان، فتراه حيياً مهذباً يراعى حق الله تعالى في العبادات المفروضة عليه، وحق لآخرين فى المعاملات المطلوبة منه، لذا كان أكمل الناس ديناً الإسلام، وكمل الناس أخلاقاً هم أهل الحياء.

ومن أجل علو الحياء وقيمته فى كمال الإيمان يفسر لنا النبى ﷺ معنى الحياء الحقيقى الملطوب الذى يجب أن يتمثله المسلم في حياته وعباداته، فيما رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (استحيوا من الله حق الحياء، قال: قلنا يا رسول الله، إنا نستحيى والحمد

---

[1] مكارم الأخلاق لابن أبى الدنيا، ص ٨٩، ونضرة النعيم، ١٧١٤/٥.

[2] فتح البارى، ٥٢٢/١٠.

لله، قال: ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى[1]، والبطن وما حوى[2]، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء)[3].

فمن هذا الحديث يعلم الأمر بالكف عن المعاصى التى يرتكبها الإنسان فى رأسه وبطنه وفكره، وترك التنافس على الدنيا، والتسابق فى الاغترار بزينتها، وأن يكون ديدنه تذكر الموت والبلى، وفى ذلك يحاة القلب الحقيقية، فيكون قريباً من الله تعالى، عاملاً بأوامره، مبتعداً عن زواجره، محاسباً نفسه على كل صغيرة وكبيرة، وفى ذلك صورة رائعة لتجسيد الحياء الحقيقى الكامن في النفس الزكية التى تتنزل عليها السكينة، وتستحق الثواب والجزاء الحسن.

ومن أجل تلك العلاقة الوثيقة بين الإنسان والحياء قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: "من قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه"[4].

---

[1] ما وعى: أى ما جمعه من القوى والأعضاء من العين والأذن واللسان، فلا يستعمل هذه الأشياء فيما لا يرضى به الله، انظر: النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير، ٢٤٣/٦.

[2] ما حوى: أى ما حفظه البطن وجمعه، وما يتصل به من الفرج والرجلين واليدين والقلب من استعمالها فى المعاصى، انظر: النهاية فى غريب الحديث، ١٨٩/٢.

[3] أخرجه الترمذى- كتاب صفة لاقيامة، باب (٢٤)، ح (٢٤٥٨) وقال: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث إبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٢٣/٤) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى، والإمام أحمد فى المسند، ٣٨٧/١، وقال محققو المسند، ١٨٨/٦: والصباح بن محمد ضعيف، والأصح أنه موقوف، وانظر: مجمع الزوائد، ٢٨٤/١٠، وقال عنه الألبانى: حديث حسن، جامع الترمذى بتحقيق الألبانى، ص ٤٠٢.

[4] مكارم الأخلاق لابن أبى الدنيا، ص ٨٣.

فمن قل حياؤه كثرت معاصيه فكانت كالران على قلبه، حتى لا يميز بين الحق والباطل ولا ينكر منكراً ولا يعرف معروفاً، لذا قال ابن القيم: "من عقوبات المعاصي ذهاب الحياء، الذى هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهاب الخير أجمعه، على حسب حياة القلب، يكون فيه خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيا كان الحياء أتم"[1]

من أجل ذلك إذا كان العبد ملتزماص بأوامر دين الله، يدعو إلى سبيل الله بسكينة، ويتحمل فى ذلك الجلد فى طلب العلم وتحرى الحق والثبات عليه، والصبر على تحمل جهالة السفهاء، وترك عداوتهم أو الانتقام منهم حياء من الله عز وجل برؤيته تقصيره، فيجذبه ذلك إلى تحمل الأذى، والمجاهدة فى ترك الشكوى، فضلاً عن عدم التحاسد أو الهمز واللمز بين أفراد المجتمع، فيشيع ذلك الحياء الجميل جو الملاطفة فى المجتمع بين القريب والبعيد والصغير والكبير، وتنطفئ نار الحقد والبغضاء، فلا تراهم إلا متحابين متصافين، بعيدين عن التعنيف والقسوة والفظاظة، بل يعم التناصح فى الخير، وفى ذلك خير كله، وذلك من ثمرات السكينة.

***المطلب الثالث:* الطمأنينة**

تناولت فى التمهيد الفرق بين السكينة والطمأنينة، وبينت علو منزلة الطمأنينة وأنها نهاية منزلة السكينة، وعندما تتبعت آثار السكينة من الصدق فى القول والفعل، والرضا بأقدار الله، والفرح الذى يلامس النفس المؤمنة، والسعادة التى تكتنف محيا المؤمن عندما تتنزل السكينة عليه فى المواقف التى

---

[1] مدارج السالكين، ٢/٢٧٠.

علمنا إياها الشرع الحكيم، لم أجد خصلة جامعة لتلك المعانى، وفضيلة سلمقة تضم تلك المعالى مثل الطمأنينة، التى ذكرها الله تعالى بقوله تعالى. ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[1] ، قال قتادة: "سكنت القلوب إلى ذكر الله واستأنست به"[2]، وقال ابن كثير فى تفسيره الآية: "أى تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً"[3].

واختلف العلماء فى المراد بذكر الله على قولين: الأول: ذكر الله عموماً، فإن القلب لا يطمئن ولا يسكن إلا بذكر الله فى كل حال، والثانى: المراد به القرآن خاصة.

واختار ابن القيم القول الثانى، ووجه اختياره بقوله: "فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلامن القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به"[4].

ولا خلاف بين القولين، بل الجمع بينهما متحقق، لأن أعظم منازل الذكر تلاوة القرآن الكريم، من أجل ذلك كان طالب العلم ومتحرى الحق أكثر الناس طمأنينة وسكوناً، بما علمه الله تعالى من ذكره وجلله بحلاوة الإيمان،

---

[1] سورة الرعد الاية (٢٨).

[2] تفسير الطبرى، ١٣/١٧٣.

[3] تفسير ابن كثير، ٤/ ٤٥٥.

[4] مدارج السالكين، ٢/٥١٣.

قال مالك بن أنس – رحمه الله-: "حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، والعلم حسن لمن رزق خيره"[1].

فالمؤمن له دليل على صحة مقصده في قوله وعمله وذلك بسكون قلبه وطمأنينته لما اختاره من الحق، فينطلق في دعوته يميز بين الحلال والحرام بالسكينة والطمأنينة، والدليل على ذلك، ما رواه أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه [2] قال: قلت يا رسول الله أخبرني بما يحل لي ويحرم علي، قال: فصعد النبي ﷺ وصوب في النظر، فقال النبي ﷺ (البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون)[3].

فالطمأنينة دليل عظيم على صحة الأمر الذي يتلجلج في النفس، فنعقد القلب على صحته، ويصدقه على ذلك قبول العمل، لذا بين الله تعالى أن المؤمن يستزيد في الإيمان والعمل الصالح، وينطلق في ذلك على بصيرة من أمره، منتظراً على ذلك الجزاء الحسن والمآل الجميل، قال تعالى في الآية

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٦/٣٢٠.

[2] أبو ثعلبة الخشني: صحابي مشهور معرف بكنيته، واختلف في اسمه اختلافاً كثيراً، سكن الشام، ولم يقاتل في صفين، وتوفي أول خلافة معاوية رضي الله عنهن سنة ٧٥هـ، انظر: الإصابة، ٧/٢٨.

[3] أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٤/١٩٤، قال محققو المسند، ٢٩/٢٧٩ك إسناده صحيح، وله شاهد من حديث النواس بن سمعان الأنصاري، (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)، أخرجه مسلم، ح (٢٥٥٣) والترمذي، ح (٢٣٨٩).

التالية ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[1] طوبى: اسم للجنة، وقيل: فرح وقرة عين، وقيل: غير ذلك[2].

فالمآب الحسن هو المنقلب الطيب الذى تنقلب إليه النفس المطمئنة التى سكنت واستيقنت بوعد الله، وثبتت على دينه، حتى ناداها المولى جل جلاله ذلك النداء اللطيف التى مدحها الله تعالى بقوله تعالى. ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[3].

قال الحسن – رضى الله عنه-: "إن الله إذا أراد قبض عبده المؤمن اطمأنت النفس إليه، واطمأن إليها، ورضيت عن الله، ورضى الله عنها، أمر بقبضها، فأدخلها الجنة، وجعلها من عباده الصالحين"[4] فالسكينة منزلة عظيمة، فإذا استقرت فى النفس، وتنزلت على القلب، وداوم صاحبها على الإيمان والعمل الصالح، استحق أن يرتفع إلى منزلة الطمأنينة التى يستحقها الأولياء الأخيار.

ومن هذا الباب ما نقله ابن القيم – رحمه الله- عن شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله قوله: "كان شيخ الإسلام إذا اشتدت عليه الأمور، قرأ آيات

---

[1] سورة الرعد الايه (٢٩).

[2] انظر: تفسير الطبرى، ١٣/١٧٦، وتفسير البغوى، ٤/٣١٦، وتفسير ابن كثير، ٤/٤٥٤.

[3] سورة الفجر الايات (٢٧_٣٠).

[4] أخرجه البخارى، كتاب التفسير، تفسير سورة الفجر، والدر المنثور، ٨/٥١٤، وتفسير الحسن البصرى، ٢/٤١٩.

السكينة، ثم يقول: وقد جربت أيضاً قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه، فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته"[1].

وهذا الأمر وإن لم يكن من الآثار الثابتة عن النبي ﷺ، لكن هذا الأمر متحقق لمن تطمئن قلوبهم بذكر الله وأسمائه وصفاته، وتلاوة آياته والتدبر فيها، والدعوة إلى الله عقيدة وعلماً وعملاً.

ويقول ابن القيم – رحمه الله-: "وكثيراً ما ينطق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرة نمه، ولا روية، ولا هبة، ويستغر به هو من نفسه، كما يستغرب السامع له، وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه، وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة، وصدق الرغبة من السائل، وصدق اللجوء إليه، مع تجرده من الأهواء، والنصيحة لله ورسوله والمؤمنين، وإزالة نفسه من البين"[2].

وهذا حقيقة ما وقع لصحابة النبي ﷺ في المواقف المشهودة، والنوازل الحادثة، وحادثة سقيفة بني ساعدة بعد وفاة النبي ﷺ، وحرب الردة، ومحنة إمام السنة أحمد بن حنبل، وغير ذلك من المواقف السالفة؛ كانت السكينة هي العاصمة من القواصم التي أرادت أن تقصم ظهر الأمة وتذهب ريحها، فالسكينة مقام عال ينزلها الله تعالى على من أراد من عباده المؤمنين. لذا جاء في حادثة غزوة خيبر أن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: (خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ∴ ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اتقيتنا ∴ وألقين سكينة علينا

وثبت الأقدام إن لاقينا ∴ إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

---

[1] مدارج السالكين، ٥٠٢/٢.

[2] مدارج السالكين، ٥٠٦/٢ (بتصرف).

فقال رسول الله: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع قال: يرحمه الله، فقال: رجل من القوم وجبت يا نبى الله لو أمتعتنا به، فلما تصلف القوم كان سيف عامر قصيراً، فقاتل أخى قتالاً شديداً مع رسول الله ﷺ، فارتد عليه سفه فقتله، فقال أصحاب رسول الله ﷺ فى ذلك، وشكوا فيه رجل مات فى سلاحه، وشكوا فى بعض أمره، قال سلمة: فقفل رسول الله ﷺ من خير آخذ بيدى، فقال: مالك؟ قلت له: فداك أبى وأمى، زعموا أن عامراً حمط عمله، قال النبى ﷺ: كذب من قاله، إن له أجرين، وجمع بين إصبعيه، إنه لجاهد مجاهد، قل عربى مشى بها مثله)[1].

فلولا ما تمثلت لذلك الصحابى المجاهد من السكينة ومقاماتها الرفيعة حتى ارتجز بها شعراً، فكان لسانه يحكى عن حاله، فاطمأن قلبه للثبات عند لقاء الأعداء حتى ناجزهم، واستحق الأجر والشهادة فى سبيل الله[2].

ويظهر فى هذه الحادثة أثر الدعاء بتنزل السكينة بوقوعها حقيقة، وذلك فى جميع المواضع التى يحتاج القلب فيها إلى الثبات، لتحقيق النفس المطمئنة الواثقة بوعد الله عز وجل صدقاً وعدلاً، لتسعد تلك النفس المطمئنة فى الدنيا والآخرة.

وتظل السكينة خلقاً قرآنياً أصيلاً، وحكمة نبوية جامعة، تحفظ الأمة من التردى فى مهاوى الردى، وتجنبها مواطن الهلاكت باتباع الهوى أو الفرقة والاختلاف.

---

(1) أخرجه البخارى، كتاب المغازى، باب غزة خيبر، ح (٤١٩٦)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب غزة خيبر، ح (١٢٣)، ح (١٢٤).

(2) انظر: فتح البارى، ٧/٤٦٥.

الخاتمة

الحمد لله على نعمه وآلائه، أنزل كتابه مفصلاً لأحوال المؤمنين، وكاشفاً لمقامات الأولياء الصالحين، وأخلاق المتقين، فعلمنا من المواهب الإلهية خلق السكينة، ودعا إليها، وأنزلها على رسوله وعباده المؤمنين، وأختم هذا البحث بعدة نقاط منها:

- أن السكينة تأتي على ماعن عظيمة منها: الوقار والطمأنينة والخشوع والثبات وأن الاختلاف في هذه المعاني العظيمة دلالة على علو مراتب السكينة وتدرجها في الكمال.
- أن السكينة تنزلت على النبي ﷺ والمؤمنين في أحلك الظروف والأزمات بفضل الدعاء بذلك، والثبات على الحق، فمهما أدلهمت الخطوب على المؤمن ينبغي عليه التوجه إلى الله تعالى بإنزال السكنية عليه.
- أن تتنزل السكينة أسباباً عظيمة مذكورة في الكتاب والسنة، فعلى المسلمين أن يلتزموا بتلك الأسباب ويجتهدوا في رعايتها آناء الليل وأطراف النهار لتحصيل تلك الموهبة الإلهية الرفيعة بتنزل السكينة.
- أن آثار تنزل السكينة على المؤمنين يستشعرها الفرد والمجتمع بتحقيق الخشوع في العبادات، والملاطفة في المعاملات للقريب والبعيد، والحياء من الله بتجنب نواهيه وفعل أوامره، والطمأنينة بهذا الدين والثقة بوعد رب العالمين.

وختاماً: إن النصوص الشرعية التي وردت فيها السكينة لفظاً ومعنى، لهي غنية بالمعاني العظيمة التي تثري إيمان القلب، وتزيد من ثباته في

المضى على طريق الدعوة إلى الله وتحمل الأذى فى سبيل الله تعالى، ليترسخ فى النفس الطمأنينة التى هى منتهى السعادة فى الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المراجع

أولاً: كتب التفسير وعلوم القرآن:

- أسباب النزول للإمام الواحدى، تعليق: د/ مصطفى ديب البغا – الطبعة الثالثة – دار ابن كثير: دمشق، ١٤١٧هـ.
- أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن، للعلامة محمد الأمين الشنقيطى – بيروت: عالم الكتب – بدون تاريخ النشر-.
- الإسرائيليات والموضعات فى كتب التفسير، د/ محمد محمد أبو شهبة – الطبعة الرابعة – مكتبة السنة: القاهرة، ١٤٠٨هـ.
- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل عبد الموجود، وعلى معوض، وشارك فى التحقيق: د. زكريا الوتى، و د. أحمد الجمل، قرظة: د. عبد الحى الفرماوى، دار الكتب العلمية فى بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشى، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم صيدا: المكتبة العصرية، بدون تاريخ النشر.
- التحرير والتنوير لمحمد بن الطاهر بن عاشورز – بدون بيانات-.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازى – الطبعة الأولى – بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى – بيروت: دار الشام للتراث – بدون تاريخ النشر-.
- الدر المنثور فى التفسير بالمأثورت للإمام جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطى، الطبعة الأولى – دار الكتب العلميةك بيروت، ١٤١١هـ.

- العجاب فى بيان الأسباب، لابن حجر العسقلانى، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، الطبعة الأولى – دار ابن الجوزى الدمام، ١٤١٨هـ.
- المحرر الوجيز لأبى محمد عبد الحق بن عطية الأندلسى، تحقيق: مجموعة من المحققين – الطبعة الأولى – الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- بدون تاريخ النشر.
- النشر فى القراءات العشر لمحمد بن محمد الدمشقى الشهير بابن الجزرى، إشراف وتصحيح: على بن محمد الضباع، دار الكتب العلمية: بيروت، بدون تاريخ النشر..
- بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن قيم الجوزيه، جمعة ودرس أحاديثهك يسرى السيد محمد – الطبعة الأولى – الدمامك دار ابن الجوزى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، تحقيق: محمد النجار – القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود محمد بن محمد العمادى – بيروت: دار إحياء التراث العربى، بدون تاريخ النشر.
- تفسير الإمام ابن تيمية – ضمن مجموع الفتاوى – جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدى وابنه – مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٠٤هـ.

- تفسير البغوى (معالم التنزيل) لأبى محمد الحسين بن مسعود البغوى، حققه: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش – الطبعة الرابعة- دار طيبة: الرياض، ١٤١٧هـ.
- تفسير الحسن البصرى، جمع وتوثيق ودراسة: د/ محمد عبد الرحيم، بدون طبعة، دار الحديث: القاهرة، بدون تاريخ النشر.
- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل للإمام الخازن علي بن محمد بن إبراهيم البغدادى – الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية: بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- تفسير القرآن الحيكم المعروف بتفسير المنار للإمام محمد رشيد رضا – الطبعة الثانية – بيروت: دار المعرفة – بدون تاريخ النشر.
- تفسير القرآن العظيم لأبى الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ.
- تفسير سورة الفتح للدكتور. أحمد السيد الكومى، مطبعة عبسى البابى الحيلى: القاهرة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
- تفسير مقاتل بن سليمان البلخى، تحقيق: د/ عبد الله بن محمود شحلتة، بدون طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة، ١٩٧٩م.
- تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن سعدى – الطبعة الأوى – عنيزة: مركز صالح بن صالح الثقافى، ١٤٠٧هـ.

- جامع البيان عن تأويل أى القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، تحقيق ١٦ مجلد منه: محمود محمد شاكر – الطبعة الثانية – مكة المكرمة: دار التربية والتراث، بدون تاريخ النشر.
- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للإمام ابى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى – الطبعة الرابعة – بيروت: دار إحياء التراث العربى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن على الشوكانى، الرياض: مكتبة المعارف – بدون تاريخ النشر–.
- فى ظلال القرآن لسيد قطب – الطبعة الثانية عشرة– جدة: دار العلم للطباعة والنشر ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- قواعد التفسير – جمعا ودراسة – للدكتور خالد بن عثمان السبت – الطبعة الأولى – الخبر: دار ابن عفان للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- لباب النقول فى أسباب النزول للإمام جلال الدين السيوطى، اعتنى بهك عبد المجيد طعمة حلبى، الطبعة الثانية – دار المعرفة: بيروت، ١٤١٩هـ.
- محاسن التأويل لجمال الدين القاسمى، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى – القاهرة: دار إحياء الكتب العربية –بدون تاريخ النشر–.
- معانى القرآن للفراء، تحقيق: أحمد نجاتى ومحمد على النجار، دار السرور: بيروت، بدون تاريخ النشر.

- معانى القرآن وإعرابه لأبى إسحاق الزجاج، تحقيق: د/ عبد الجليل شلبى، -الطبعة الأولى- عالم الكتب: بيروت،١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبى الحسن إبراهيم بن عمر البقاعى، تحقيق وتنسيق: عبد الرازق بن غالب المهدى – الطبعة الأولى – بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

ثانيا: **كتب السنة وشروحها وغيرها:**

- الجامع الصحيح وهو سنين الترمذى لابى عيسى محمد بن عيسى سورة، طبعة جديدة مرقمة. كتاب تيسر المنفعة وموافقة للمعجم المفهرس، إعداد، هشام سمير البخارى، دار إحياء التراث العرابى فى بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.
- الزهد لعبدالله بن المبارل المروزى، تحقيق: حبيب الرحمن الاعظمى، دار الكتب العلمية: بيروت.
- المستدرك على الصحيحين للإمام ابى عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى، تحقيق: أبو عبد الله عبد السلام بن محمد بن عمر علوش – الطبعة الأولى- دار المعرفة: بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- الموطأ للإمام مالك بن أنس الأصبحى، صححه ورقمه وأخرج أحاديثهك الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى –القاهرة: مطبعة دار إحياء الكتب العربية –بدون تاريخ النشر-.
- تهذيب اىخلاق وطهير الاعراق لاحمد بن مسكوبة غريبة: ابن الخطيب -الطبعةالاولى-المطبعة المصية: القاهرة،

- جامع الترمذي، تخريج الأحاديث: الشيخ الالباني، اعداد: فريق بيت الافكار الدولية، بيت الافكار الدولية: عمان، بدون تاريخ النشر.
- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي: تحقيق: على محمد معوض وعادت احمدعبد الموجود -الطبعة الاولى- الرياض: مكيب العبيكان، ١٤١٨ هـ.
- حلية الاولياء لابى نعيم احمد بن عبدالله الاصبهانى -الطبعة الرابعة - دارالكتاب العربي: بيروت، ١٤٠٥هـ.
- سنن ابن ماجه، للإمام الحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى، القاهرة: مطبعة عيسى البابى الحلبى.
- سنن ابى داود للامام الحافظ ابى داود سليمان بن الاشعث السجستانى، حمص.: سوريا: دار الحديث-الطبعة الاولى-.
- سنن النسائى، للإمام أحمد بن شعيب بن على النسائى، بيروت: دار الكتب العلمية.
- شرح صحيح مسلم، للإمام محى الدين أبى زكريا النووى، طبعة دار الفكر.
- صحيح البخارى للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى – طبعة دار الشعب.
- صحيح مسلم.، للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى سيسبورى، طبعة دار الفكر-.

- عون المعبود شرح سنن ابى داود لأبى الطيب محمد شمس الدين الحق العظيم آبادى، ضبط وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان – الطبعة الثالثة– بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- فتح البارى شرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى، تصحيح وتحقيق: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، طبعة: دار الفكر. – بدون تاريخ النشر–.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى –الطبعة الثالثة دار الكتاب العربى: بيروت، ١٤٠٢ هـ.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد ونستعين لابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقى، دار الكتاب العربى: بيروت، ١٣٧٢هـ/ ١٩٧٢م.
- مسند الإمام أحمد للإمام أبى عبدالله أحمد بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر عطا –الطبعة الأولى– دار الكتب العلمية: بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- موسوعة الكتب الستة، إشراف: الشيخ صالح آل الشيخ –الطبعة الأولى –دار ال سلام: الرياض، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- موسوعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم، إعداد: مجموعة من المختصين، إشراف: د. صالح بن عبد الله بن حميد، وعبد الرحمن بن ملوح –الطبعة الثانية –دار الوسيلة: جدة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

ثالثاً: كتب السيرة والرجال:

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير الجزرى، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب فايد. – بدون طبعة – دار الشعب: القاهرة، بدون تاريخ النشر.
- الإستيعاب في أسماء الأصحاب، لابن عبد البر القرطبي المكي. بحاشية الإصابة في أسماء الصحابة، –بدون طبعة– دار الكتب العربي: بيروت –بدون تاريخ النشر.
- الإصابة في تمييز أسماء الصحابة لابن حجر العسقلاني، –بدون طبعة– دار الكتب العلمية:بيروت – بدون تاريخ النشر.
- البداية والنهاية، للإمام ابن كثير، الطبعة الرابعة – بيروت: مكتبة المعارف، بدون تاريخ النشر.
- التاريخ الكبير للإمام محمد بن إسماعيل البخارى، تحقيق: الشيخ: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دائرة المعارف العثمانية: الهند، ١٣٦١هـ.
- الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفورى –الطبعة الأولى– الرياض: دار المؤيد، ١٤١٧هـ.
- السيرة لابن إسحاق، المجلد الأول –بدون بيانات–.
- تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلانى بعناية: عادل مرشد – الطبعة الأولى– مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.
- تهذيب التهذيب لابن حجر، باعتناء: إبراهيم الزيبق وعادل مرشد – الطبعة الأولى – مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

- زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية، حقق نصوصه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط -الطبعة الثالثة- مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، ١٤٠٢هـ.
- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط -الطبعة السابعة- مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- سيرة النبى ﷺ لابن هشام -القاهرة: مطبعة عيسى الحلبى -بدون تاريخ النشر.

رابعاً: **كتب اللغة والمعاجم:**

- التعريفات للجرجانى -بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٧م.
- القاموس المحيط لمجد الدين محمد يعقوب الفيروز آبادى، تحقيق: مكتب التحقيق بمؤسسة الرسالة -الطبعة الأولى- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلانى -بيروت: دار الكتاب العربى -بدون تاريخ النشر-.
- تهذيب اللغة لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيقك د/ عبد الله درويش، ومحمد على النجار، بدون بيانات.
- شذور الذهب فى معرفة كلام العرب لجمال الدين ابن هشام، تحقيق: محيى الدين عبد الحميد - بدون بيانات-.

- لسان العرب لابن منظور، تنسيق وتعليق: علي شيري –الطبعة الثانية – بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- معجم البلدان لشهاب الدين ياقوت الحموي، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، – بدون طبعة – دار الكتب العلمية: بيروت، بدون تاريخ النشر.
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.